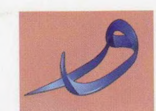
إقصاء العقل عن الحياة

... النتائج المريرة

سعد الغري





إقصاء العقل عن الحياة

...النتائج المريرة

إقصاء العقل عن الحياة ...النتائج المريرة

سعد الغري



ومضات للترجمة والنشر

الطبعة الأولى

2018

الناشر

ومضات للترجمة والنشر

البريد الألكتروني : wamadatpublisher@gmail.com

بيروت - الجمهورية اللبنانية

إنَّ المشاكل التي نعيشها ولا نريد مفارقتها وليدة أسباب نتجت عن استراتيجيات ومخططات، تهدف إلى التبعية الثقافية والسياسية والاقتصادية لأصحاب القرار، ويستخدم في إثباتها وتحقيقها مختلف الوسائل والأدوات، وتؤثر سلبياً على الجو العام للمجتمع؛ وبالتالي التبعية القصرية في مختلف الجوانب الحياتية، ولا يمكن الفرار من هذا المخطط إلَّا بعودة العقل إلى مملكة حكمه وإرجاعه للفطرة السليمة التي تمكنه من تمييز الحق من الباطل، فلا يقع أسير الخدع والمؤامرات التي تحاك.



مقدِّمة

الإنسان العاقل ينصف الناس كلهم حتى أعدائه ومَن خالفه، فلا ضير أن نصف أعداءنا بالحنكة ـ من هذه الحيثية ـ فهم شديدو الذكاء، ويعملون بصبرٍ وبصيرة ضمن سلسلة من الاستراتيجيات من أجل تحقيق غاية وهدف منشود، لقد عرفوا الطريق السهل للسيطرة على أصحاب الحق، بلا حاجة أن يقدموا بأنفسهم وآلياتهم وحشودهم ـ على ما في ذلك من مغامرة وتضحية بالأموال والسمعة التي قد تتأثر وتأليب الوضع العام ضدهم ـ وغزوا المجتمعات في عقر دارها بلا أسلحة ودمار ماديين بل معنويين، وهذا ما يسمَّى بالاستعمار الفكري، واستخدموا لأجل تحقيق ذلك أرقى الآليات وأجملها وأكثرها جاذبية، فنشروا الأفكار التي تهدف إلى زرع شبهات ومفاهيم مغلوطة داخل منظومة الإنسان الفكرية، والتي أدَّت وتؤدي الى تغيير الفطرة السليمة الموجودة عند البشرية، والتي على أساسها جُعلت له المحورية في هذا العالم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

فمن يصادر فكر الانسان وحرياته ما هو إلَّا محتل يريد استعمار العقول، ويريد أن يرى الآخرون من خلال نافذته المعرفية، ويفرض عليهم

(1) سورة الإسراء، الآية 70.

قسراً التفكير بما يريدهم به على حسب رؤيته؛ وبالتالي التبعية الاقتصادية والسياسية ووو...، لأنَّه يعلم حينما يتركهم على حالهم، فإنَّ فطرتهم السليمة لا ترضى بالانقياد، وذاتها لازمة للتفكير والتدبّر.

فإذاً، هناك مرض عضال منتشر نتيجة لمخططات واستراتيجيات منظّمة ومقنّنة لتغيير وتشويه الفطرة الإنسانية، ويعتبر هذا العمل تهديداً قوياً ومتقناً، ويكابر من يقول باستطاعتنا مواجهة هذا الخطر بسهولة؛ لأنَّه لم يستطع غيره مواجهته أمثال الدول العظمى والمتطورة، بما تمتلك من مقوّمات المقاومة.

اتفق الجميع على الأزمة، وأُلّفت الكثير من الكتب لبيان أصل وجودها، ولكن لم يتعرض إلى لمية المسألة والسبب الرئيس ورائها، ولم يبيِّن ما ورائية هذا الخطر الذي ألمَّ بالواقع بمختلف جوانبه، فالأكثر يقرأ ويكتب ولديه قابلية التفكير، ولكن قليل من يفكر بصورة صحيحة ويقرأ ما بين السطور وملتفت الى الخطر الداهم.

الأكثر حَكَمَ بالمسألة واختار وجهة نظره، وبدأ ينّظر الى ما يريد الوصول إليه، ويقترح الحلول التي تتوافق مع طبيعة نظرته وثقافته الفكرية، فيعتبر المشكلة ناشئة من التقليد الأعمى للغرب في الجوانب الاقتصادية والسياسية، دون تقليدهم في أساس وصولهم إلى ما هم فيه من التقدُّم والتطوّر، ألا وهو التفكير [1].

وظلَّ قسم ـ كما هو دائماً ـ يبكي وينوح على ليلاه ولا يحرك ساكناً، بل يرمي بكاهل هذا التقصير على غيره تفصياً منه، ويغض النظر عن بيان

---

(1) انظر: أزمة العقل المسلم، عبد الحميد أحمد أبو سليمان، الطبعة الأولى 1412هـ 1991م، نشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، توزيع: السعودية ص13.

جذر المسألة وأساسها.

إن المشكلة الأساسية التي تواجه الإنسان ظلت على حالها دون حل، على الرغم من كل مظاهر التقدم العلمي، وتتمثل هذه المشكلة في رضا الإنسان عن عقله وعن تفكيره وعن معتقداته[1].

وآخرون أشاروا الى ما للغرب من تطوّر، ونفوا إمكان اللحاق بهم، واقترحوا أن نستوعب منهج التفكير الذي تقوم عليه الحضارة الغربية المعاصرة باستيعاب المبادئ والأسس والمفاهيم التي تقوم عليها تلك الحاضرة، فإذا تمَّ ذلك كان لنا أن نبتدع أفكارنا الخاصة المستقلة، فنكون منتجين لا مستهلكين.

فهم بالأحرى سلّموا للواقع وقرروا التبعية المطلقة للغرب، وهذا يمثّل تياراً موجوداً بقوة في الواقع وما عليه الأكثر ويسمّي نفسه بـ (المثقّف)!

إنَّ المشاكل كثيرة على كثرة أقسامها، ولكن لا بدَّ لنا من أن نبيِّن وظيفتنا؛ ومن أجل حرصنا على أداء تكليفنا ورفضنا الاستعمار بكلِّ طرقه وجوانبه وأشكاله، لكوننا خلقنا الله أحراراً والحرية هي مؤدى الفطرة السليمة، وللتعرُّف على المشاكل التي تترتب على غياب العقل أو تغييبه عن موقعه الحاكم، عقدنا العزم وشرعنا في كتابة هذا البحث ـ وبإشراف ومتابعة من أبينا العلمي وأخينا العزيز أ.د. أيمن المصري ـ خلال صفحات قليلة، نحاول فيها الإشارة والبيان لهذه المسألة واستقصاء أسبابها إجمالاً، وعرض النتائج المترتبة على المجهر لخطورتها، ولكيلا يكون البحث هدمياً فقط، ولم نهمل أن نذكر أخيراً التوصيات التي يمكننا بتبعها حل الأزمة.

---

(1) إدارة العقل البشري الجديد، بشير شريف البرغوثي، سنة الطبع: 2000م، دار زهران، عمّان، الأردن، ص 11.

فهذا الكتيب محاولة لتسليط الضوء على فكر متهرئ أُصيب به المجتمع، فانشغل بما لا قيمة له عن الأهم، وأصبح مهووساً بأفكار لا تلبي له الاحتياجات الواقعية، وأخذ يلهث وراء الأهداف المادية والخيالية الوهمية الزائلة، وأقصى التي فيها التكامل الحقيقي للإنسان وصيرورته إنساناً بالفعل والتي لأجلها خلقه الله تعالى، فجعل للقوى الشهوية الفصل الأكبر في مملكة الإنسان، ولم يعطِ المجال لفصل الإنسان الحقيقي بالظهور وقواه العقلية الحاكم الأصلي لمملكة الإنسان، ونحّاها عن مكانها وجعل الهوى هو المتصدي للقيادة.

وسوف نتطرق ـ في هذه الصفحات القلائل ـ إلى عدّة مباحث: فنتعرض أولاً الى ما وراء اختيار العقل، ثمَّ بيان المراد من المصطلحات التي سنتعرض لها في البحث، حيث يتمّ تعريف العقل والمراد منه هنا والأهمية التي يحضى بها، وحجيته ومقدار حجيته وحدود حجيته، ثمَّ نستعرض المناهج المنحرفة عن المنهج العقلي ونحاول نقدها، وبعدها نبين أسباب الإقصاء والتغييب، وما هي النتائج المترتبة على تغييبه، وأخيراً نذكر خاتمة وتوصيات، وبتمامها نكون قد استوفينا الكلام ولكن بصورة مختصرة، وإلَّا فإنَّ الشواهد تحتاج إلى أبحاث.

المبحث الأوَّل:
ما وراء اختيار العقل

تمهيد

إنَّ بعض الجهات والمنظمات والمؤسسات ـ التي تعتقد بأنَّ الغاية النهائية للبشر هي السيطرة على العالم وخضوع كل عالم المادة له ـ قد انتهجت سلاح التبعية الفكرية وجعلت من الحكومات الضعيفة والمترأسة علمت أم لم تعلم[1] أداةً لها، تحاول من خلالها وغيرها من الأدوات ـ كالتعليم والإعلام والتكنولوجيا والسينما والاقتصاد والسلاح والمؤسسات الافتراضية والمؤسسات التعليمية والروافد المالية ـ السيطرة على عقول الناس وأفكارهم؛ وبالتالي تسييرهم للاتجاه الذي ترغب من دون مؤونة تذكر على ما في التبعية الثقافية والسياسية والتكنولوجية والابستمولوجية[2]

(1) وهذا شاهد على ما افتتحنا به من أنَّهم يعملون بدهاءٍ ومكرٍ؛ لأنَّهم جعلوا آخرين يقومون بأعمال يريدونها هم من غير أن يشار إليهم، وهناك حكمة تقول: إنَّ الذكي ليس الذي يفعل ما يريد، ولكن الذي يجعل الآخرين يفعلون ما يريد.

(2) المراد بها هنا نظرية المعرفة، فهذه كلمة إنكليزية أصلها (Epistemology)، وهي تعتبر من المقدمات المهمة للدراسات العقلية الفلسفية وتهتم بطبيعة ومجال المعرفة. وهي تحاول الإجابة عن الأسئلة التالية: ما هي المعرفة، وما هي أدواتها، وهل هي حجة وحدود حجيتها.

من آثار سلبية، ومن ثَمَّ حكومة العالم عبر هذا الاستعمار الفكري، فتصل إلى هدفها المنشود.

فمهَّدت لغاياتها وأهدافها بطرق مختلفة ومتنوّعة، منها: دسّ الأفكار المشوّهة شيئاً فشيئاً في مناهج جعلتها هي الأساسية ولها المحورية والميزان للواقع، وجعلت من منهجها حاكماً طبيعياً، وبه ينال غيره المقبولية والمصداقية، فيكون ما سواه غير مقبول ومحاطاً بالاستفهامات والاستغرابات.

ومنها: إبدال الحق بالباطل، فرفعوا قبح القبيح؛ لشهرته فلم يهجر، وشنعت بالذي يهجره واعتبرته خارج عن الفطرة، وجعلت الحسن قبيحاً؛ لعدم العمل به لشناعته، فقلبت الموازين واختلفت الأقيسة.

ومنها: خلق ثورة فكرية معكوسة هدفها النيل من الأديان الحقة التي توصل الإنسان الى إنسانيته، فابتدعوا معتقدات لها بحسب الظاهر لباس المعتقدات القويمة والقوية، وفي الواقع هي آلة لهم تحاول تخريب البنيان والأساس التي بني عليها ذلك المعتقد.

إنَّ تزريق مثل هكذا أفكار مسمومة للناس على مختلف ثقافاتهم ومناهلهم وجنسياتهم، إنَّما يكون بغياب المنظومة الفكرية الإنسانية، وبإعمال الفوضوية والتي لا تكون إلَّا بإقصاء العقل أو غيبوبته.

ومع الأسف نجد بعض من يدعي الانتساب الى دين ما قد كرّس نفسه ليكون بخدمتهم، وأكّد على هذه الاستراتيجية من حيث يدري أو لا يدري، فحارب التعقل والتفكر أولاً مدّعياً أتفه الأسباب، ثمَّ بادر الى اعتماد سلاح التكفير والزندقة لمن يجد في نفسه الرغبة لتعلم العلوم

العقلية والتعقل بها.

ونسى ما عليه هذه الأمة والتي ينبغي لها، وهي التي حملت قصب السبق في العلوم العقلية والفكرية، فعليها أن تشرع في اجترار ما كانت تبرع فيه [1]، والرجوع واعتلاء مناصب سلبت منها ـ على حين غفلة ـ، وذلك عبر بناء المنظومة الفكرية الإنسانية كما أمر العقل.

لماذا العقل

من الواضحات التي يُسخر بمنكرها أنَّ قوام الإنسان وحقيقته بعقله، فهو الأس الذي يرتكز عليه ـ وقد شُخصّت من قبل الأنبياء والأئمة عليهم السلام والحكماء ـ وبفقدانه يصل الإنسان الى مرحلة ينعدم فيها المميز بينه وبين بقية العجماوات، غارقاً في الماديات، جاعلاً من إرضاء حواسه وخيالاته غايته القصوى.

استغل الأعداء هذه المسألة وعمدوا إلى ضرب الميزان المهم والقائد الفطري والمائز والضابط الوحيد لصدق الواقع، والذي بإقصائه وسقوطه يفقد كل أمر قطعيته، ويمكن أن يصح كلُّ شيء أو يكون شيءٌ ما أيَّ شيء، ومن ثَمَّ الفوضى المعرفية والسفسطة الفكرية، فتتحوّل الحياة إلى غابة ويبقى الصراع للأقوى، فتنتصر الكثرة المأنوس بها وهي الشهرة والوهم.

لتوضيح الفكرة نضرب مثالاً: إذا اختصم اثنان في طول شيءٍ ما، فلا بدَّ ـ لأجل حل النزاع والوصول إلى الواقع القطعي الذي لا خلاف فيه ـ

---

(1) ينبغي التنبيه إلى أنَّ تقدم العرب على الغرب في العلوم الفكرية ليس مدّعى، بل قد اعترف المفكرون الغرب بوجود فكر عربي سابق على الفكر الغربي في العصور الوسطى. انظر: إدارة العقل البشري الجديد، بشير شريف البرغوثي، سنة الطبع: 2000م، دار زهران، عمّان، الأردن، ص 84.

من توفّر مقياس مقبول واقعي حقيقي، يمكننا بواسطته قياسه لكي نقطع بالحكم ولا يكون كلا القولين صحيح، والميزان المتبع في معرفة طول الأشياء ـ على سبيل المثال هنا ـ هو وحدات القياس (المتر)، وحينما نطبق الميزان هنا يحل النزاع، فيقبل الطرفان النتيجة على مضض أو بقبول حسن.

وهكذا في وزن الأشياء وكثافتها والمسافات وغيرها من الأمور، فالحلّ يكمن في الرجوع إلى ميزان موضوعي واقعي لإثبات الحق وقطع النزاع.

نأتي هنا ونقول: لو أردنا أن نعرف حقيقة شيءٍ ما أو الدليل عليه، أو صدق قضيةٍ ما، فإن لم يكن عندنا ميزان للوصول الى الواقع ـ من دون شك في الميزان ولا في صحته ـ لا ينقطع النزاع وتبقى إجابة الطرفين في حيّز الإمكان، فيبقى الأمر معلّقاً ولا نصل إلى نتيجة؛ فيبقى كُلٌّ منهما محتفظاً برأيه؛ وبالتالي التهديد الكبير الذي تواجهه المعرفة من عدم إمكان التلاقح المعرفي واستحالته في هذه الحالة، وهذا لعدم وصولنا الى قطع في المسألة، فيبقى طرفاها في حيّز الإمكان، ولا مرجِّح لأحد الطرفين على الآخر.

الله تبارك وتعالى خلق الإنسان وألهمه هذا الميزان بالفطرة، فالمعطي لهذا الميزان والحاكم بمطابقته هو العقل بما سيأتي من معنى، فالتشكيك به تشكيك في الميزان، فينعدم الميزان الأصلي في كلِّ المسائل، وبما أنَّ الإنسان مجبول على الترجيح ومواصلة العمل والحياة منوطة به، فاستمرارية هكذا وضع مستحيلة نوعاً ما؛ فيضطر الى ميزان آخر وهو ما يتوهمه العوام والعرف، فينحصر إمَّا بما يُستأنَس من حوار، أو بما عليه الأكثر، أو بالكلام الأجمل أو بالذي عليه الأقوى أو ... فينتقل التفكير من تفكير عقلاني إلى شيءٍ آخر. وهنا تكمن المصيبة.

إنَّ المحاولات الكثيرة من قبل المغرضين لسلب اعتبار وحجية العقل

الخاص واستبداله بغيره، كانت ولا تزال، ولكن لم توجه مباشرة إلى العقل، بل تعرضوا لحريمه؛ لإنَّ إنكار الأحكام العقلية مباشرة موجب لثورة الرأي العام؛ لاستئناس الجميع بها لشهرتها وبديهيتها، فلا يتجرأ أيُّ أحدٍ على الوقوف أمام المشهور.

فاتُخذ سبيلٌ آخر للاحتيال يؤدي الى الغاية المقصودة ـ ألا وهو سلب الاعتبار والحجية عن العقل ـ وذلك عن طريق التشكيك وإنكار لوازمه، والتي بدورها تؤدي إلى إنكاره. وقد استخدمت لأجل إنكار اللوازم الكثير من الأدوات، واتخذت أشكالاً كثيرة مختلفة ـ لا يسعنا إحصاءها هنا ـ نذكر منها ما أنكره المنهج التجريبي، وما أنكره الغزالي.

أولاً: اللوازم التي شكك بها أصحاب المنهج التجريبي وقد اتخذت صوراً مختلفة، منها: إنكار السببية[1]

---

(1) اختلف في قاعدة السببية تصوراً وتصديقاً، فمن حيث المفهوم اختلف فيها، فاعتبرها بعضُ من الكلمات التي يكتنفها الغموض الشديد والأصل التاريخي لمبدأ السببية يكتنفه الغموض الى حدٍّ ما، فمن الواضح أنَّه نشأ كنوع من إسقاط التجربة الإنسانية على عالم الطبيعة (انظر: السببية في العلم، السيد نفادي، الطبعة الأولى 2006م، نشر: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، توزيع دار الفارابي. ص 17 وص23). وقال فيليب فرانك: (إنَّ وضع صياغة علمية لمبدأ السببية أمر شديد الصعوبة والتعقيد) (فيليب فرانك، فلسفة العلم، ترجمة د علي علي نصيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 بيروت 1983، ص32).واعتقد هانزكيلنز أنَّ السببية لا يستفاد منها فقط في الفلسفة بل في الطبيعة، وهي عبارة عن تساوي العقوبة مع الجريمة، وأصبحت السببية قاعدة في ميدان الفلسفة والطبيعة مؤداها تساوي السبب مع النتيجة. وإمامهم في هذه الفوضى الفكرية الفيلسوف ديفيد هيوم (1776-1711)، وقد اشتهر هيوم بهجومه على مبدأ السببية. ويقرر هذا المبدأ أنَّه لا يمكن أن يحدث أو يظهر إلى عالم الوجود شيء من غير سبب. وكان هيوم يعتقد أنَّه بالرغم من أنَّ حدثاً واحداً (مجموعة من الانطباعات) يسبق دائماً حدثاً آخر، إلَّا أنَّ هذا لا يثبت أنَّ الحدث الأول سبّب الحدث الثاني. وقال هيوم كذلك: إنَّ التزامن ←

← المتواصل بين حدثين، ينشئ توقعاً بأنَّ الحدث الثاني سوف يتم حدوثه بعد الأول. ولكن لم يكن هذا شيئاً أكثر من اعتقاد راسخ، أو عادة عقلية علمتنا إيّاها الخبرة، ولم يستطع أحد أن يبرهن أنَّ هناك ارتباطات سببية بين الانطباعات، وقد بنى هيوم نظريته عن الأخلاقيات على الخبرة، رافضاً الرأي القائل: بأنَّ العقل في استطاعته التمييز بين الفضيلة والرذيلة. وقد فحص الظروف التي كان فيها الناس يتحدّثون عن الأخلاقيات. وختم أقواله بأنَّ الميزات الفاضلة عند الناس هي تلك التي كانت سائغة أو نافعة لهم. وكان هيوم يزعم أنَّ الناس جميعاً يملكون عاطفة الخيرية؛ ومعناها الرغبة الطيبة، وأنَّ هذه العاطفة كانت أساس الأحكام الأخلاقية. وفي تفسيره للسببية اعتقد كارناب (Carnap) أنَّ أخذ كلّ الأشياء المتوقع تأثيرها على حالة معينة متساوية الاحتمال في كونها سبب لتأثيرها على تلك الحالة، وهذا يضعنا في موقف من الشك. وأمّا وايت (White)، فإننا قد تواجهنا في الواقع ظروف معينة تضطرنا إلى أن نعلن أسباباً ونحن في الحقيقة نخفي الأسباب الحقيقية. وهذه الأسباب تفرق عن القوانين العلمية؛ حيث إنَّ (الأسباب المعلنة دائماً ما تكون بعد الفعل وليس قبله، أي لا يمكن التنبؤ بها على الإطلاق. أمَّا القوانين العلمية، فإنَّها تقرر قبل حدوث شيء، وتكون جزءاً من عملية التنبؤ).

هذه بعض الأقوال في تعريف السببية وشروطها ولمزيد من الاستيضاح (السببية في العلم، السيد نفادي، الطبعة الأولى 2006م، نشر: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، توزيع دار الفارابي).

وحصر العلم بالتجربة [1]، وحصر الموجود بالمدرَك [2] وغيرها.

---

(1) فحصر العلم بالتجربي ينفي علمية غيره من أدوات المعرفة، ودوره تفسيري فقط للأشياء، ولا يعطي السبب وراء ذلك، فيكون دوره دور المفسِّر عن طريق التجربة. وهذه النظرية تسمّى الوضعية (Positivism)، والتي هي إحدى فلسفات العلوم، ومؤسسها الفيلسوف والعالم الاجتماعي الفرنسي الشهير أوغست كونت، حيث وضع هذا المصطلح في القرن الثامن عشر، وهو يعتقد بأنَّ العالم سيصل إلى مرحلة من الفكر والثقافة بأنَّه سوف تنفى كلُّ القضايا الدينية والفلسفية، وسوف تبقى القضايا العلمية التي أثبتت بالحس والخبرة الحسية أو بالقطعية والوضعية (positive).

وفي ذلك العصر سوف يمحى الدين من ساحة المجتمعات البشرية.وتستند إلى أنَّ المعرفة الحقيقية في مجال العلوم الاجتماعية ـ كما في العلوم الطبيعية ـ هي المعرفة والبيانات المستمدة من التجربة الحسية، والعلاجات المنطقية والرياضية لمثل هذه البيانات والتي تعتمد على الظواهر الطبيعية الحسية وخصائصها والعلاقات بينهم، والتي يمكن التحقق منها من خلال الأبحاث والأدلة التجريبية. كما تعد قسم من أقسام نظرية المعرفة (إبستمولوجيا). وهي نشأت كردٍّ فعلٍ لعلمي اللاهوت والميتافيزيقيا اللذين يعتمدان المعرفة الاعتقادية غير المبرهنة.

واستمرت هذه النظرية إلَّا أنَّه في القرن العشرين الميلادي سمّى فريق من الفلاسفة الآلمانية والإنجليزية حلقتهم التي كانت تعقد في فينا بـ «الوضعية المنطقية». أصحاب حلقة فينا (وقد يطلق عليها اسم مدرسة فينا الوضعية) كانوا يعتقدون بأنَّ قضايا كلّ العلوم البشرية غير المنطق لا بدَّ أن تؤيّد بالحس والتجربة. ولكن القضايا المنطقية ـ التي تحدد طريقة تفكير البشر وتعصمه عن الخطأ في الفكر ـ هي القضايا والأصول العلمية الوحيدة التي لا يجب أن تثبت بالحس والخبرة؛ لأنَّها تعملنا طريقة التفكير الصحيح.

ودامت نجمة الوضعية المنطقية في العقود الأولى من القرن العشرين مضيئة ومتلألة في سماء فلسفة العلم، إلَّا أنَّها أفلت بعد ظهور الجيل التالي من الفلاسفة من أمثال: كوهن، وويلارد فان، أورمان كواين.

(2) وقد ذهب إليه البعض منهم: جورج بيركلي (1753-1685)، فيلسوف أنجليزي ولد في إيرلندا، ويعد من أشهر الفلاسفة المثاليين اللاماديين في العصر الحديث، بدأ فلسفته بسلب أو إنكار المادة، وادّعى بيركلي أنَّه لا يوجد شيء اسمه مادة على الإطلاق، وما يراه البشر ويعتبرونه عالمهم المادي لا يعدو أن يكون مجرَّد فكرة في عقل الله وينتهي باركلي إلى وضع هذا المبدأ ←

ولبيان ما يترتب على هذه المسألة نقول: إنَّ مؤدى إنكار علاقة السببية صدور أيِّ شيءٍ من أيِّ شيءٍ، فلا يمكن أن نعتقد على سبيل المثال: إنَّ النار علَّة للحرارة فقط، بل احتمال صدور الحرارة عن الماء واحتمال برودة النار يبقى في حيّز الاحتمال، فلا يمكننا أن نتعرف على الواقع بما هو عليه بل احتمال تغيّره باقٍ.

فالتأثير «المقصود أو غير المقصود» على بعض هذه الأمور يؤدي إلى حصول تغيير في الواقع ونفس الأمر، وهذا ما حدث فعلاً؛ حيث قامت بعد **هيوم** مدارس متعددة ترجع في أسها الى إنكار السببية أو الاختلاف في مفهومها.

فالتشكيك في أحكام العقل لازمه التشكيك فيه؛ وبالتالي الفوضى المعرفية والفكرية.

ونلاحظ أنَّهم ـ حينما نطلع على سير العملية الفكرية الغربية ـ لم يشككوا في النتائج الرياضية والفيزيائية الطبيعية، فلم يستطيع أحدهم القول: (1+1=3)؛ لأنَّها مسألة مادية وعرفية، إنكارها موجب لإثارة العرف العام ضدّهم، وهم في محل جلب الرأي العام معهم، أمَّا في العلوم العقلية ـ البعيدة عن العرف واستيحاشه منها ـ فقد جوزوا أن يكون:

→ الذي صار مشهوراً فيما بعد وهو: (الوجود هو الإدراك الحسي أو وجود شيء هو أن يكون هذا الشيء مدركا بالحس. فكل شيء يدين بوجوده للإدراك الحسي، وليس له وجود في ذاته) (انظر: بدوي، عبد الرحمان، موسوعة الفلسفة، الطبعة الأولى، سنة 1984، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان. ج1، ص289-287).

وقد جمع بعض المشكلات الكاتب ماهر عبد القادر في كتابه، فللمزيد من الاطلاع انظر: مشكلات الفلاسفة، ماهر عبد القادر محمد علي، سنة الطبع: 1405هـ 1985م، نشر وطباعة: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

(1+1=2)، أو (1+1=5)، أو (1+1=7)، أو يمكن أن تكون نتيجة هذه المعادلة أيَّ شيءٍ آخر! لأنَّه رفض الضرورية فيها، فيجوز أن يكون أيُّ شيءٍ من أيِّ شيءٍ، وهذا شنيع، وبعيد حتى عن الجهّال.

وليس كلامنا هذا بمعنى ضرب للمناهج التجريبية والعلمية؛ بل نحن نتفق مع الآخرين في التجربة وإفادتها للعلمية ولكن بحدودها، كما نعرف أنَّ لعلماء العرب المؤمنين الدور الأساس والرائد في الحفاظ على المعالم اليونانية والتي انتقلت إلى العرب عن طريق الترجمة، فوصلت إلى الغرب، حيث ابتدأوا من حيث ما انتهى العرب، وتكاملت معارفهم التجربية إلى أن وصلت من التقدُّم إلى حيث نعلم ولا نعلم، فكان للعرب المسلمين قصب السبق في هذا المجال بالنسبة للغرب [1].

ولكن الإشكال والمصيبة تكمن فيمن يضع هذا المنهج بصورة عشوائية من غير تنظيم، ومن دون مراعاة لحدود المعرفة التجريبية، كما سيأتي البحث عنه في طيات كلامنا.

وهكذا بالنسبة لبقية الأمور في غير هذا المثال من الانتهاكات لحكم العقل، فإنَّها تؤدي إلى نقض باب العلم والتعلّم، ورفع للعقل عن ساحته الفطرية كما ذكرنا آنفاً.

ثانياً: التشكيك الذي أتى من قِبل غير التجربيين، الذين عمدوا إلى السخرية من العقل بوصفه الأمثل والأعلى والذي يحصّل الكمال الإنساني، بدعاوى غير معتبرة ما أنزل الله بها من سلطان، ويتبجحون على الملأ بأنَّ

(1) هذا الأمر واضح لمن يراجع التاريخ الفكري، فيجد أمثال: جابر بن حيان الذي يعد أول من وضع التجارب اليونانية من النظرية إلى التطبيق المكرّر. كما وتعتبر كتبه إلى الآن من المصادر المهمة في هذا العلم وغيره من العلوم.

رفضهم لهذه العلوم لكونها من المشركين، فاعتمادها شرك وكفر وضلال؛ لأنَّها بدعة، وكلُّ بدعةٍ ضلالة، وكلُّ ضلالةٍ في النار!

وأخرى لأنَّه لم تذكرها الشرائع السابقة، وثالثة بكونها معرّضة للخطأ والسقوط في فراغ الجهل.

قال **الغزالي**: «أمَّا بعد، فإنِّي قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التمّيز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات، والتوقي عن المحظورات، واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين، بفنون من الظنون، يتبعون فيها رهطاً يصدون عن سبيل الله يبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون ... وإنَّما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة، كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس وأمثالهم، وأطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم في وصف عقولهم، وحسن أصولهم ودقة عقولهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية واستبدادهم ـ لفرط الذكاء والفطنة ـ باستخراج تلك الأمور الخفية، وحكايتهم عنهم أنَّهم ـ مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم ـ منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل، ومعتقدون أنَّها نواميس مؤلَّفة وحيل مزخرفة.

فلمَّا قرع ذلك سمعهم، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم، تجملوا باعتقاد الكفر، تحيّزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخراطاً في سلكهم وترفعاً عن مسايرة الجماهير والدهماء، واستنكافاً من القناعة بأديان الآباء، ظنّاً بأنَّ إظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق، بالشروع في تقليد الباطل، جمال، وغفلةً منهم عن أنَّ الانتقال الى تقليد عن تقليد، خرق

وخبال، فأيَّة رتبة في عالم الله أخس من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليداً بالتسارع الى قبول الباطل تصديقاً دون أن يقبله خبراً وتحقيقاً، والبله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة، فليس في سجيتهم حبّ التكايس بالتشبه بضوي الضلالات ، فالبلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء، والعمى أقرب الى السلامة من بصيرة حولاء...» [1].

استشهدنا بكلام الغزالي لكونه من المتكلّمين الأخباريين الصوفيين؛ باعتبار مراحل عمره التي قضاها متنقلاً بين هذه المناهج المعرفية.

ومن هنا يمكن القول بأنَّ المشكلة ليست مجرَّد مسألة علمية، بل هي دينية وسياسية، وهنا يكمن خطرها، وهذا الأمر ليس شخصياً، بل يمثّل اتجاهاً وتياراً يعصف بكلِّ من يقف في وجهه ويتحامل على من يَدْرس ويُدَرّس ويترجم هذه العلوم، بل ومن يتحدّث بها.

(1) الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق وتقديم: سليمان دنيا، الطبعة الثامنة، نشر دار المعارف، مصر. ص74-73.

المبحث الثاني:
تعريف العقل وأهميَّته وحجيَّته وحدودها

بعد أن بيّنا ما وراء اختيار العقل، نحتاج إلى بيان المراد من العقل لغةً واصطلاحاً وما هو مرادنا نحن من العقل في هذا البحث، ثمَّ نبيّن أهميته عبر بيان ذكره في المعتقدات والأديان وما جاء من ذكره في الكتب السماوية وكذلك في القرآن الكريم وفي السنَّة النبوية، ثمَّ نبيّن اعتباره وحدود اعتباره.

المراد من العقل

العقل هذه الكلمة كثيرة العشاق لا لذاتها، بل لما تحمل من معنى، فالكلُّ يتغني ويترنم بها، وينتسب لها، ويسلبها عن خصمه، فلنتعرف أولاً على المعنى اللغوي لها، ثمَّ المعاني الاصطلاحية لوقوعها محل النزاع، ثمَّ نبيّن المعنى المراد.

العقل لغةً

العقل لغةً الحجر والنهى، يقال: رجل عاقل، أي: جامع لأمره ورأيه، وهو مأخوذ من العقال، يقال: عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، لذا قيل:

العقل عقلاً؛ لأنَّه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي: يحبسه، والعقل: التثبت في الأمور، والعقل: القلب، وقيل: العقل: التمييز الذي به يتميّز الإنسان عن سائر الحيوان، وقد يقال للعقل معقول، رجل ما له معقول، أي: ما له عقل[1].

العقل اصطلاحاً

وإمَّا في الاصطلاح، فإنَّ العقل يطلق على معاني كثيرة، تشترك في مسألة بيان العقل ولكن من جوانب مختلفة، فبعضها فسّر العقل من خلال وظائفه، وبعضٌ آخر من خلال أقسامه، وبعضٌ آخر من خلال ماهيته.

نقتصر منها على عدّة معاني:

الأول: العقل الفلسفي: وهو الذي يعتبر من مسائل علم الفلسفة، فيبحث عن وجود هذا الجوهر المجرَّد عن المادة ذاتاً وفعلاً، ويعبّر عنه شرعاً بالملائكة [2].

الثاني: العقل العرفي: وهو العقل المعتمد على الاستقراء كوسيلة لمعرفة الواقع، والذي يلهج به العلمانيون[3].

وهو نفسه الذي يعبّر عنه بالعقل المشهوري، والذي هو المشهور في

---

(1) انظر: الخليل الفراهيدي، كتاب العين، ج1، ص 159، والجوهري، الصحاح، ج5، ص 1769، وابن منظور، لسان العرب ج11، ص459-458.

(2) انظر: عبد الله العروي، مفهوم العقل، الطبعة الثالثة سنة 2001، نشر: المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ص154.

(3) انظر: أيمن المصري، أصول المعرفة والمنهج العقلي، الطبعة الأولى سنة 2010م، نشر: المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ص64.

بادئ الرأي عند الجميع، فبادئ الرأي المشترك عند الجميع أو عند الأكثر يسمّيه الجدليون بـ (العقل)، وبهذا المعنى وصفه **ديكارت** بأنَّه أعدل الأشياء قسمة بين الناس [1].

الثالث: العقل التراثي: والمقصود به (التراث، الذي كثيراً ما يوجد في كلمات المفكّرين، من عرب وغيرهم، حينما يتحدّثون عن العقل العربي أو العقل الغربي)، والذي يعكس عاداتهم وتقاليدهم وطريقة تفكيرهم على مرِّ العصور [2].

الرابع: العقل المعرفي: وهو العقل المتخذ كأداة من أدوات المعرفة، وهو عبارة عن المدرِك للكليات، والتي تميّز الإنسان عن غيره من العجماوات، فيختلف عن الحسِّ والخيال والوهم [3].

الخامس: إنَّه ملكة إدراك ما هو كلي وضروري سواء أكان ماهية أم قيمة [4].

السادس: المعنى الذي ينسب إلى أفلاطون وأرسطو، والمراد منه: عبارة عن قوة أو ملكة أو جزء من النفس، ويتميّز بين سائر قوى النفس التي هي الإحساسات والخيال والشهوة والانفعال. ويختلف عن النفس بأنَّها

(1) انظر: عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، الطبعة الأولى سنة 1984م، نشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان. ج2، ص74.

(2) انظر: أيمن المصري، أصول المعرفة والمنهج العقلي، الطبعة الأولى سنة 2010م، نشر: المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ص64.

(3) انظر: المصدر السابق.

(4) انظر: عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، الطبعة الأولى سنة 1984م، نشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان. ج2، ص74.

مبدأ الحياة وكلّ ألوان النشاط الحيوي، بينما العقل هو مبدأ المعرفة، وقد يستخدم **أرسطو** للتعبير عن العقل بـ (النفس الناطقة).

ولكن بعض الفلاسفة الغربيين أضاف للعقل وظائف النفس الأخرى، حيث أضاف **ديكارت** الإحساس والتخيل والانفعال والشهوة، وكذلك جون لوك، وأيضاً هيوم، حيث قال الأخير: لا شك في أنَّ العقل مزوّد بقوى وملكات عديدة، وأنَّ هذه القوى متمايزة بعضها عن بعض[1].

السابع: يعرف العقل بوصفه ملكة، ويبيّن بقسميه: العقل النظري، والعقل العملي [2].

الثامن: يعرّفه **برونشقج** بوظائفه الثلاث، والتي هي: التجريد والتصنيف، التفسير، التنظيم[3].

التاسع: وهو ما عند **(كانت)**، حيث إنَّه يستعمل العقل بمعنيين: الأول: واسع، والآخر ضيق محدود، أمَّا الواسع فهو يشمل الذهن ويشمل العقل المحدود، والمحدود: هو الملكة العليا للمعرفة، وهو الذي يحقق الوحدة العليا للتفكير. وهو ملكة المبادئ، وملكة وحدة قواعد الذهن تحت المبادئ، وهو لا يتناول التجربة بل الذهن كيما يوحّد المعارف التي يدركها الذهن[4].

العاشر: حيث يوضع في مقابل الوجدان (intuition)، ويقرر بأنَّ العقل أداة العلم والوجدان أداة الفلسفة. ويفصّل فيقول: إنَّ العقل دائماً

---

(1) انظر: عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، الطبعة الأولى سنة 1984م، نشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان. ج2، ص74.

(2) انظر: المصدر السابق.

(3) انظر: المصدر نفسه.

(4) انظر: المصدر نفسه.

يعطينا المفيد عملياً وتكون كلّ علومه جزئية، بينما الوجدان يعطي الأشياء تحت مظهر المدة ويزوّدنا بمعرفة شاملة كلية، وينسب هذا القول لـ **(برجسون)** [1].

كما وقد ذكرت للعقل كثير من المعاني يوجب الاستطراد فيها الخروج عن محلِّ الكلام[2].

قد يتصور بداية أنَّ عرض معاني العقل فيه نوع من الخروج عن منهج البحث؛ وبالتالي تؤدي إلى تشويش المطلب ووضع القارئ في دوامة هو في غنى عنها، وأيضاً الإسهاب فيه موجب للتطويل الممل و...

ولكن الترتب الطبيعي يقتضي ببيان المصطلحات؛ لكيلا يقع التنازع فيها ثمَّ يعرض الرأي المختار، وهذا يجري في كلِّ العلوم وفي كلِّ كتابٍ أو بحث، فلا بدَّ من الإشارة إلى المعاني بصورة دقيقة حتى يتصور ما نحن بصدده؛ لأنَّ الحكم فرع التصوّر.

ولكي يستطيع أن يميز القارئ إينما ذكرت هذه الكلمة لا تستوجب الاتحاد بالمعنى المراد؛ بل كل كلمة تشير إلى معنى غير الآخر، وقد يستعملها المغالط لغايته في تشويه المطلب، والمجادل لغلبة خصمه واقناع الجمهور.

المراد من العقل هنا

يعتبر العقل قوة من قوى النفس، وينقسم إلى نظري وعملي، وكماله

---

(1) انظر: المصدر نفسه.

(2) لمزيد من التوضيح حول العقل ومعانيه وما يرتبط فيه، انظر: جيرار جيهامي، (سلسلة موسوعات مصطلحات أعلام الفكر العربي والإسلامي)، خامساً: موسوعة مصطلحات ابن رشد الفيلسوف، الطبعة الأولى سنة 2000م، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ص721-680.

بكمال قوتيه النظرية والعملية (إدراك ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون)، والعقل النظري الذي يدرك القضايا الكلية والجزئية، وأمَّا العقل العملي فهو الذي يدرك القضايا الجزئية التي تكون مبدأ للفعل الأختياري(ما ينبغي أن يكون).

والمراد لنا هنا من العقل هو العقل النظري البرهاني، وهو الذي يستخدم البرهان كوسيلة لحصوله على اليقين بالمعنى الأخص (المطابق، الثابت، لا عن تقليد)، والذي تكون مبادئه قطعية بيّنة أو مبيّنة مأخوذة كمبادئ، أو قطعية الثبوت بالبرهان.

العقل في المعتقدات والأديان

إنَّ مقدمية العقل وأهميته من الأمور التي لا شك فيها ولا شبهة ولا نزاع، وتقديم غيره مستوجب لتقديمه من دون شك؛ لأنَّ التقديم إنَّما يكون بحكمه فهو المقدَّم أولاً.

إنَّ وظيفة الأنبياء هي الهداية والتبليغ والإرشاد وليسوا معلِّمين مدرّسيين، ولم يجيئوا لبيان علمٍ ما بنحوٍ تخصصي[1]، ولكن رغم ذلك كله اتفقت المعتقدات الإلهية وغيرها على أهميته البالغة، فبه عرف الإله وبه عرف النبي وبالاعتماد عليه تعرفنا على الدين الحق، فهو الحجة الباطنة؛ لذلك نجد الكتب السماوية والأديان الإلهية تركّز على أهميته وتبرزها بصورة واضحة، فلنبتدأ أولاً ببعض المعتقدات، ثمَّ بالكتاب المقدَّس، ثمَّ

---

(1) قد يدّعي بعضُ أنَّ الأنبياء جاؤوا ببيان كلِّ شيءٍ؛ لأنَّهم رسل الله تعالى العالم بكلِّ شيءٍ، فكلُّ شيءٍ موجود في الكتب الإلهية، وهذا محل كلام، وسنعقد لبيانه -إنشاءالله تعالى- بحثاً خاصاً، فإنَّ وظيفة الأنبياء هي وظيفة إرشادية بيانية إنذارية والهداية الى طرق النجاة.

القرآن الكريم والسنَّة النبوية:

في المعتقدات الهندوسيّة

هناك غايات عند الهندوس وهذه الغايات لا يصل إليها إلَّا عن أربعة طرق (يوجات) وصلتهم هذه عن طريق الحكماء، أغلبها قائمة على أساس عقلي، فمن ضمن الطرق التي يتبعها الفرد ليصل للهدف الروحي للحياة (موكشا، سامادهي، أو نيرفانا) هي:

1. بهاجتي يوجا (طريق الحب والإخلاص).
2. كارما يوجا (طريق العقل أو الفعل الصحيح).
3. راجا يوجا أو الطريقة الملكية (طريق التأمّل).
4. جينيانا يوجا (طريق الحكمة).

فوجود العقل مبرز في الطرق الثلاث الأخيرة. وأمَّا الطريق الأول، فوجوده على نحو المقدمية.

عند البوذيين

تقوم البوذية على أسس أخلاقية واضحة، فهي تدعو الإنسان أن يطرح الأنانية والشهوة، وتعتقد أيضاً أنَّ الأصل في التناسخ ينشأ ممَّا جبل عليه الإنسان من التمسّك بالحياة، ويتحقق الخلاص عند اتّباعها عن طريق اتّباع منهج عقلي أخلاقي، هدفه محور النفس الفردية (كارمان) وفناؤها في (النرفانا)، أي الذات الإلهية.

ووسيلتهم هي الإدراك، وهو يتمثل في إدراك الإنسان لجهله من حيث

إنَّ هناك مجموعة من الأسباب تؤدي إلى الجهل وهو بدوره يؤدي إلى الشقاء. وهذه العقيدة لم يفهمها البسطاء من البوذيين؛ لأنَّها تقوم على أسلوب عقلي يدفع بالذهن الإنساني إلى التحرّر من جهله وأنانيته لكي يفنى في ذات مطلقة.

في الكتاب المقدَّس

فضلاً عن المعتقدات غير الحقة، كذلك التي أنزلت من قبل الله تعالى أشارت وبرّزت الدور المهم للعقل، فها هو الكتاب المقدَّس يصرح بأهمية التأمّل والتفكر والتعقل والحثّ عليه، مؤكداً على أهمية هذه الأمور في المعتقدات الدينية، بل هي القوام لها:

فمرّة يجعل مناط الحساب والمسائلة على الفكر والقول، **يقول**: «لِتَكُنْ أَقْوَالُ فَمِي وَفِكْرُ قَلْبِي مَرْضِيَّةً أَمَامَكَ يَا رَبُّ، صَخْرَتِي وَوَلِيِّي»[1].

ومرّة يجعل مناط السماع والاستجابة مقصورة على المتفكرين والمتأمّلين في ذات الله تعالى: «حِينَئِذٍ كَلَّمَ مُتَّقُو الرَّبِّ كُلٌّ وَاحِدٍ قَرِيبَهُ، وَالرَّبُّ أَصْغَى وَسَمِعَ، وَكُتِبَ أَمَامَهُ سِفْرُ تَذْكَرَةٍ لِلَّذِينَ اتَّقُوا الرَّبَّ وَلِلْمُفَكِّرِينَ فِي اسْمِهِ»[2].

وأخرى جعل العقل كالدرع الحاصن لكونه يحفظ المتعقلين، قال: «فَالْعَقْلُ يَحْفَظُكَ، وَالْفَهْمُ يَنْصُرُكَ»[3].

وحذّر الناس كلّ الحذر من ترك العقل وترك معونته، فإنَّها مخوفة وعاقبتها غير محمودة، **قال**: «فإنَّ الخوف إنَّما هو ترك المدد الذي من العقل:»[4].

---

(1) سفر المزامير 19: 14.

(2) سفر ملاخي 3: 16.

(3) سفر الأمثال 2: 11.

(4) سفر الحكمة 17: 11.

وجعل الذي لا يؤمن بالعقل من السفلاء: «في ذخائر الحكمة: العقل والعبادة عن معرفة، أمّا عند الخطاة، فالحكمة رجس»[1].

في القرآن الكريم

وإذا تصفّحنا القرآن الكريم وجدنا التدبّر والتفكّر والتأمّل من معالمه الواضحة، فأسُّ الدين الإسلامي قائم على التعقل والتأمّل وهما قوامه، فهو يرفض التقليد الأعمى وإن أدت إلى نتائج إيجابية؛ لأنَّها تؤدي إلى طمس التأمّل والتفكّر والتدبّر والتعقل، وهذا يجعل من الإنسان الكائن المفكّر كائناً مقلّداً في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة في حياته، فينزل من الكمال إلى مرتبة الحيوانية، لذا نرى القرآن الكريم يعلن بالرفض القاطع لمثل هذه التقاليد والعادات.

وأمّا للتعبير عن العقل، فقد جاء القرآن بألفاظ مختلفة، فهو يطلق العقل مرّة، وأخرى اللب، وأخرى الحجر، ورابعة النهى، وكلها تأتي بمعنى واحد[2]: قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾[4]. وقال جل وعلا:

---

(1) سفر يشوع بن سيراخ 1: 26

(2) انظر: مصادر المعرفة الدينية خبر الواحد نموذجاً، محمد جواد الموسوي الغروي، راجعه وأشرف عليه: علي أصغر الغروي، الطبعة الأولى 1425هـ 2004م، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. ص65.

(3) سورة البقرة، الآية: 197.

(4) سورة طه، الآية: 54.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾[1].

وهو تعالى تارةً يمدح المتأمّلين والمتفكرين والمتعقلين في آيات كثيرة، وهي على طوائف:

الأولى: في مدح التعقل، فمنها: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ... لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]. وقال جل وعلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

الثانية: في مدح التفكّر، منها: قال جل وعلا: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]. وقال: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

الثالثة: في الحثّ على التدبّر، منها: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[6]. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[7].

وتارةً أخرى يرفض الاتّباع والتقليد الأعمى ويذمّه مذمّة كبيرة في آيات، منها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي

---

(5) سورة الفجر، الآية: 5.

(1) سورة البقرة، الآية: 164.

(2) سورة النحل، الآية: 12.

(3) سورة الاعراف، الآية: 176.

(4) سورة يونس، الآية: 24.

(5) سورة النساء، الآية:82.

(6) سورة محمد، الآية:24.

يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1].

ومنها: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[2].

ومنها: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[3].

ومنها: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾[4].

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[5].

ومنها: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[6].

ومنها: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[7].

في السنّة الشريفة

لم ينفرد كتاب الله المجيد بمدح العقل والتعقل، بل كلّ المنظومة

(7) سورة البقرة، الآية:171-170.

(2) سورة المائدة، الآية 58.

(3) سورة الأنفال، الآية 22.

(4) سورة يونس، الآية 42.

(5) سورة يونس، الآية 100.

(6) سورة الحج، الآية 46.

(7) سورة الفرقان، الآية 44

الإسلامية جاءت به وحثّت عليه، ويظهر ذلك بكلِّ ما للحكم الشرعي من صور، فحتى الروايات الشريفة الصادرة عن النبيﷺ والأئمةعليهم السلام من بعده تشير إلى هذه المسألة، وهذا ما نجده واضحاً جلياً في الكتب المعتبرة عند الشيعة، فالروايات كثيرة في هذا المقام.

قال الرسول الكريمﷺ في مدحِ العقل: **«ما اكتسبَ ابنُ آدم أفضل من عقلٍ يهديه الى هدىً او يردُّه عن رَدىً»**[1].

وجعل الرسول الأكرم قوام الدين بالعقل، قالﷺ: **«إنَّما يدرك الخير كله بالعقل، ولا دين لمن لا عقل له»**[2].

وعنهﷺ: **«المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني»**[3].

وعن عليعليه السلام قال: **«هبط جبرئيل على آدمعليه السلام فقال: يا آدم إني أمرت أن أخيرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع اثنتين فقال له آدم: يا جبرئيل وما الثلاث؟ فقال: العقل، والحياء والدين، فقال آدم: إني قد اخترت العقل فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه، فقالا: يا جبرئيل إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما وعرج»**[4].

وما في الكافي الشريف، عن أبي جعفر الباقرعليه السلام قال: **«لمَّا خلق الله العقل استنطقه، ثمَّ قال له: أقبل فأقبل، ثمَّ قال له: أدبر فأدبر، ثمَّ قال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك ولا أكملتك إلَّا فيمن أحبّ،**

---

(1) محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني، ص1.

(2) تحف العقول، ابن شعبة الحرّاني، ص44.

(3) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج4، ص2796 وما بعدها وما قبلها.

(4) محمد بن يعقوب الكليني، أصول الكافي، مصدر سابق، ح2.

أما إنِّي إيَّاك آمر، وإيَّاك أنهى وإيَّاك أعاقب، وإيَّاك أثيب»[1].

وعن الحسن بن الجهم قال: قلت لأبي الحسنعليه السلام: إنَّ عندنا قوماً لهم محبّة، وليست لهم تلك العزيمة يقولون بهذا القول؟ فقال: «**ليس أولئك ممَّن عاتب الله، إنَّما قال الله: فاعتبروا يا أولي الأبصار**»[2].

وعن أبي الحسنعليه السلام حين سئل: فما الحجة على الخلق اليوم، فقالعليه السلام: «العقل، يعرف به الصادق على الله فيصدّقه، والكاذب على الله فيكذّبه»[3].

وعن إسحاق بن عمّار قال: قال أبو عبد اللهعليه السلام: «**مَن كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنّة**»[4].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال: «**حجة الله على العباد النبي، والحجّة فيما بين العباد وبين الله العقل**»[5].

وجعل الحساب يوم القيامة على العقل، عن أبي جعفرعليه السلام قال: «**إنَّما يداق الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في**

---

(4) محمد بن يعقوب الكليني، أصول الكافي، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، الطبعة خامسة سنة 1363ش، المطبعة: حيدري، نشر: دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، ج1، ص11، الباب الأول (كتاب العقل والجهل) ح1.

(1) المصدر سابق، ح5.

(3) محمد بن يعقوب الكليني، أصول الكافي، مصدر سابق، ج1، ص25، ح20 / علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ج1 ص122 باب 99 ح6/ الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج2 ص225.

(4) محمد بن يعقوب الكليني، أصول الكافي، مصدر سابق، ح6.

(5) الفصول المهمة في أصول الأئمة، الحر العاملي، ج1 ص121، وانظر: الكافي، وعلل الشرائع، وغيرهما.

الدنيا»[1].

عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد، فجمع بها عقولهم، وكملت به أحلامهم**»[2].

وأكّد الحكماء على أهمية العقل بتبع الشرع، ولما ثبت عندهم من أنَّه هو الذي يفيد اليقين بالمعنى الأخص، نذكر منهم:

قال **ابن سينا**: «لو صُوِّرَ العقلُ لأضاءَ عتمةَ الليل».

قال **الحارث المحاسبي(243-165)**: «العقل نور في القلب، والبصر نور في العين»[3].

وإن ننسى لا ننسى ما قاله **المتنبّي**:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم   أدنى إلى شرف من الإنسان

الاتحاد بين الدِّين الحقِّ والعلوم العقليَّة

إنَّ العقل من النعم التي لا يعرف منزلتها إلَّا معطيها، وأهميتها مقارنة بالنبوَّة؛ لذا ساواها معها وجعلها الطريق إلى معرفة أصول العقائد والتوحيد، وعُدّت في بعض الروايات بمنزلة الرأس من الجسد. وليست محصورة في عالم التجربة ولا في عالم الاعتقادات والأديان ولا عند طائفة معينة، بل هي مسألة عامة. بل الاستدلال على قوة ومتانة الدين بقوة الاستدلالات العقلية

---

(1) محمد بن يعقوب الكليني، أصول الكافي، مصدر سابق، ح7.

(2) محمد بن يعقوب الكليني، أصول الكافي، مصدر سابق، ج1، ص25، ح21.

(1) انظر: العقل وفهم القرآن، الحارث بن أسد المحاسبي، قدّم له وحقّق نصوصه: حسين القوتلي، دار الكندي ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1402 هـ 1982م، ص204.

عليه، ويمكننا القول بمصطلحات رياضية: إنَّ قوة الفلسفة ـ والتي تمثّل المصداق الواضح للعلوم العقلية ـ تتناسب طردياً مع قوة الدين الحق، فكلما ازداد الدين قوة ازدادت قوة وفكراً وثباتاً، وهذا دليل على التوحد القائم بينهما، «وممَّا هو جدير بالذكر أنَّ ظهور الفلسفة ونموها كان تابعاً لقوة الدين الإسلامي وشدة بأسه وسعة انتشاره، فلمَّا ضعفت العقائد الدينية ضعفت المباحث العقلية التي كانت تستدعيها تلك العقائد، فكأنَّ دين الإسلام بضدِّ غيره من الأديان، كان يغذي الفلسفة ويقويها ويشد أزرها»[1].

وتتناسب عكسياً مع الأديان والمعتقدات الباطلة، حيث كلما قوى الدين الباطل ضعفت الفلسفة وهذا دليل خلل في إحدهما، «لاحظ الأستاذ (رينان) في بعض مؤلَّفاته هذه الظاهرة العجيبة، وهي هبوط الفلسفة في أوروبا كلما قويت شوكة الدين، وانتعاش الفلسفة بعد ذلك عقيب تدهور العقائد الدينية في أوروبا»[2].

العقل العام والعقل الخاص

الجدير بالذكر إنَّ ما أشير إليه من المؤيَّدات والروايات المادحة إنَّما تمدح العقل الخاص، الذي هو الحاكم اليقيني الصادق في مملكة الإنسان وبه قوام الإنسانية وتميّزه عن العجماوات، وهو خليفة الله تعالى في الأرض وحجته الباطنة.

وأمَّا العقل العام[3] وهو الحاكم المطلق في مملكة الإنسان، فهو ينقسم

---

(1) تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، محمد لطفي جمعة، المكتبة العلمية، المقدمة.

(2) تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، محمد لطفي جمعة، المكتبة العلمية، المقدمة.

(3) من معاني العقل والتي وقعت بالاشتراك اللفظي هو العقل بالمعنى العام، وهو الحاكم المطلق

بلحاظ الأداة المعرفية التي يستخدمها إلى: العقل التجريبي، والعقل الحسي، والعقل البرهاني، والعقل الاشراقي، والعقل الأخباري[1]، وإنَّما اعتبر المصداق الأوضح المشمول لهذا المدح هو العقل البرهاني بلحاظ مبادئه ونتيجته؛ لأنَّ مبادئه[2] بيّنة أو مُبيّنة (أي قطعية) وصورته قطعية، فتكون نتائجه وأحكامه قطعية، ويعد قمة الهرم من هاتين الحيثيتين.

وبقية اللحاظات للعقل حاكمة أيضاً، ولكن بأحكام ظنية أو وهمية أو حسية أو قطعية ولكن ليس بالمعنى الأخص، والقطع مقدَّم على غيره من الأحكام.

إمكان الاعتماد على العقل

يبقى عندنا سؤال في المقام، وهو أنَّ هذا العقل الذي ندعو إليه هل هو حجة وقابل للاعتماد، أم لا؟ فإن كان الأول ما هو الدليل على حجيته؟

قد يبدو لأول وهلة ضعف هذا السؤال، ولكن لو تأمّلنا فيه لوجدناه في الواقع من الأسئلة التي تطرح للغفلة عنه، كما تطرح أمثاله كثيراً، مثلما يسأل السائل مخاطباً شخصاً أمامه: هل أنت موجود!

أو يقال: هل قسم التفاحة أكبر من كلها!

في مملكة الإنسان، فكلُّ حكمٍ يأتي فهو عقلي، ولكن يختلف الحكم تبعاً للأداة المستخدمة فيه كما سيأتي بيانه.

(4) كما بُيّن في محله في علم نظرية المعرفة أنَّ الأدوات المعرفية هي: الحس، التجربة، العقل، الوحي، الإشراق، والحاكم أي الذي يرجِّح النسبة في القضايا التي جاءت من هذه الأدوات هو العقل، فهو الحاكم المطلق فيها، انظر: أصول المعرفة والمنهج الواقعي، أيمن المصري.

(1) المقصود من المبادئ هي: ما يعتمد عليه والقواعد التي يرسى عليها، والمقصود منها هنا القضايا التي يعتمد عليها البرهان.

أو: هل أنَّ وجود الشيء يجتمع مع عدمه!

أو: هل الخمسة أكثر من الواحد!

وغيرها من الأسئلة، فهناك تساؤلات بديهية وفطرية الجواب، بل بديهية، ولكن يحتاج فيها إلى نوع من التنبّه، فيرى الجواب بالاعتماد على الفطرة السليمة.

ولكي يكون كلامنا خال من المصادرات ومبني على التحقيق، نقول: عند تحليلنا لأحكام العقل المعرفي البرهاني نجدها تتكون من قضايا وصورة ونتيجة.

أمّا القضايا، فهي مواد البرهان والتي تسمّى بمقدمات البرهان؛ لوقوعها مقدمة في البرهان، وبُيّن في محلّه أنَّها لا بدَّ أن تكون يقينية بيّنة أو مبيّنة[1]، وإلاَّ ـ أي إذا كانت ظنية أو مشكوكة ـ تخرج عن كونها مواد برهانية. إذاً المواد المستخدمة في البرهان يقينية.

وأمّا صورة البرهان والتي هي عبارة عن الترتيب بين المقدمات للوصول الى النتيجة، فهي ترجع الى أحد أشكال القياس الثلاثة المنتجة،

---

(1) المراد من القضايا البيّنة: التي لا تحتاج في بيانها إلى شيء آخر سواها، من قبيل القضايا المعتمدة على الحواس أو على البديهيات الست، والتي هي: (الأوليات، المحسوسات، التجربيات، الحدسيات، المتواترات، الفطريات)، وهذه القضايا هي رأس مال العلم وإليها ترجع كلّ القضايا، وأيضاً في هذه القضايا ترتب، فكلّ البديهيات ترجع إلى القضايا الأولية والتي هي من قبيل امتناع اجتماع النقيضين وهي أم القضايا وأوضحها.

أمّا القضايا المبيّنة وهي: القضايا التي حصل اليقين بها من خلال البرهان، فتكون ليست بيّنة بحد ذاتها بل تبيّن بالبرهان، وهناك شروط تذكر لمقدمات البرهان لكي يكون تاماً تذكر في محلها، من أهمها كون المقدمات يقينية بالمعنى الأخص بيّنة أو مبيّنة واليقين بالمعنى الأخص هو أن تكون: ثابتة، مطابقة، لا عن تقليد، يقينية.

لاسيَّما أوضحها، وهو الشكل الأول[1] الذي يكون فيه الحدّ الأوسط (ب)

---

(2) الشكل: عبارة عن الترتيب الحاصل للقضايا بحيث تنتج نتيجة، وبحسب القسمة العقلية تنقسم الأشكال إلى أربعة:

حيث نعتبر (أ) الموضوع الذي نريد إثبات الحكم له، و(ب) الحدّ الأوسط الذي لوجوده في مقدمات البرهان يكون معرّفاً للمقدمة الأولى على الثانية، و(ج) الحكم الذي نريد إثباته للموضوع (أ)، نرجع ونقول الأشكال بلحاظ (أ) و(ب) و(ج) تنقسم بالقسمة العقلية بلحاظ (ب) الحدّ ←

→ الأوسط إلى أربعة أشكال:

1. الشكل الأول: وهو أن يكون الحدّ الأوسط محمولاً في الصغرى موضوعاً في الكبرى، وهو أبده الأشكال لموافقته للفطرة، وينتج موجب كلي:

(أ ب) (كلُّ خمرٍ مسكر)

(ب ج) (كلُّ مسكرٍ حرام)

إذاً (أ ج). (النتيجة: كلُّ خمرٍ حرام)

2. الشكل الثاني: وهو أن يكون الحدّ الأوسط محمولاً في المقدمتين، وهو بعيد عن مقتضى الطبع، مثاله:

(أ ب) (كلُّ فرسٍ حيوان)

(ج ب) (لا شيء من الحجر بحيوان)

إذاً (أ ج) (لا شيء من الفرس بحجر)

3. الشكل الثالث، وهو: أن يكون الحدّ الأوسط موضوعاً في المقدمتين، وهو أكثر بعد عن الطبع من الشكل الثاني، مثاله:

(ب أ) (كلُّ ذهبٍ معدن)

(ب ج) (كلُّ ذهبٍ غالي الثمن)

إذاً (أ ج): (بعض المعدن غالي الثمن)

4. الشكل الرابع: وهو أن يكون الحدّ الأوسط موضوعاً في الصغرى، محمولاً في الكبرى (عكس الشكل الأول) وهو أبعد الأشكال بالطبع، غامض الإنتاج عن الذهن مثاله:

(ب أ) (كلُّ إنسانٍ حيوان)

(ج ب) (كلُّ ناطقٍ إنسان)

إذاً (أ ج) (بعض الحيوان إنسان).

وللتوسع يراجع المنطق أشكال القياس، وإن كانت بعضها فطرية وواضحة، ولكن أهمية المنطق

محمولاً في الصغرى (أ ب) وموضوعاً في الكبرى (ب ج)، وهذا الشكل بديهي وفطري وينتج موجبة كلية ويشار إليها عادةً بالصورة التالية:

(أ ب)

(ب ج)

إذاً (أ ج)

حيث إنَّ (أ) الأصغر، و(ب) الأوسط، و(ج) الأكبر، و(أ ب) صغرى القياس، (ب ج) كبرى القياس، (أ ج) النتيجة.

ويعبّر عنها بالرياضيات بقاعدة المساوي وهي:

(مساوي المساوي مساوي) أو (أ = ب) و (ب = ج) إذاً (أ = ج)، وهذه الصورة بديهية وواضحة البداهة.

فالحاصل أنَّ القضية الناتجة متكونة من مقدمات يقينية وصورة يقينية فتنتج ناتج يقيني.

وهذا الناتج اليقيني يكون مقدمة في قياس آخر مع قضية أخرى يقينية وصورة يقينية، فتحصّل لنا ناتج يقيني، وهكذا تستمر بالتكاثر والتوالد شيئاً فشيئاً.

إذاً، فالنتيجة الآتية من مقدمات البرهان يقينية، وهذا هو مرادنا من حجية العقل البرهاني، وعرفنا السبب وكونها معتبرة وحجة؛ لأنَّ مبدأها من الأمور البديهية والقطعية.

ويعبّر عن هذا المعنى بالحجية الذاتية، أي لا يكتسب حجيته من

مستمرة وسيّالة في كلِّ العلوم.

آخر، بل هو الذي يعطي الحجية لنفسه، ولتقريب الفكرة بصورة أوضح، نقول: عندنا قضيتان: الأولى: الجدار أبيض. الثانية: البياض أبيض. وهناك فرق بين القضيتين، فالبياض جاء ووصف الجدار في القضية الأولى، فهو غريب عن الجدار، فيمكن ألَّا يكون الجدار أبيض بل أخضر أو أحمر أو غير ذلك.

وأمَّا القضية الثانية، فالبياض من ذاتياته الأبيضية ولا يمكن أن يكون غير ذلك، فهو وصف ذاتي له، بحيث إذا سلب البياض لا يبقى أبيض وهو واضح.

فحينما نقول: إنَّ العقل البرهاني اعتباره وحجيته ذاتية فهي من قبيل[1]: البياض أبيض، لا تحتاج إلى إعمال الاعتبار والمقبولية من طرفٍ آخر، بل من ذاتياته وخصائصه.

قال **الشيخ المصري**: «إنَّ حجية البرهان العقلي ذاتية، بمعنى أنَّ كاشفيته عن الواقع لا تحتاج إلى دليل يدل عليه، ويكتسب مشروعيته العلمية منه، بل هو الدليل على كلِّ دليلٍ، وتكتسب سائر الأدلة مشروعيتها المعرفية منه»[2].

فهو هبة من الله تعالى حيث أوجد في منظومة التفكير الإنسانية حاكماً واقعياً معصوماً؛ يكون الأساس والقاعدة للحكم وإعطاء الاعتبار والحجية لبقية الأدلة، وهذا مدعاة للتفكر العميق والشكر الجزيل للإله الحكيم الذي أكرمنا بهذا العطاء فإنَّه من النعم المجهولة، والتي

---

(1) وإنَّما قلنا من قبيل وليست هي؛ لأنَّ حجية واعتبار العقل أوضح.

(2) انظر: أيمن المصري، أصول المعرفة والمنهج العقلي، الطبعة الأولى سنة 2010م، نشر: المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ص143.

ببركتها جعلت المحورية للإنسان.

فإن لم يكن كذلك ـ بأن يكون القطع أمراً خارجاً عن الإنسان ـ تحكم الفوضى وتؤدي إلى التشكيك في اعتبار كلِّ شيءٍ وحجيته، وتوجب التسلسل وعدم الانتهاء إلى قاعدة نتكئ عليها في الأحكام، وعدم القطع بأيِّ شيءٍ وعدم العلم به؛ وبالتالي لغوية الخلقة ـ من جانب التشريع والديانة ـ وسريان التشكيك واللاعلمية المطلقة من الجانب المعرفي.

وهذه الحجية إنَّما تكون ذاتية إذا روعيت وأحكمت شروطها، فليس كلما وضعنا مقدمات قطعية نحصل على نتيجة قطعية، بل لا بدَّ من مراعاة شروط القضية وشروط القياس لنحصل على قضية قطعية، فالمراعاة واجبة لكي تحصل نتائج البرهان[1].

حدود اعتبار وحجيَّة العقل الخاص

هناك عدة احتمالات في حدود حجية العقل، و هي:

1. لا اعتبار ولا حجة له.
2. إنَّ اعتباره وحجيته مطلقة قبل الدين. أمَّا حينما يبدأ الدين، فيستلم القيادة ويكون اعتبار العقل بتبع الدين، فدوره دور التأسيس ثمَّ يبدأ دور النقل.
3. اعتباره وحجيته مطلقة في جميع الأحوال.
4. هو معتبر وحجة، ولكن ليس بصورة مطلقة بل بحدود.

---

(1) كما هو مذكور في محله في كتب المنطق، حيث تذكر شروطاً لأجل إنتاج قضية يقينية أيضاً، فراجع.

الجواب: يمكننا معرفة الجواب بمناقشة الأقوال، ويسلم الخالي من الإشكال والنقاش، فنقول:

1ـ مناقشة القول الأول: إذا كان هذا القول هو الصواب نأتي ونسأل السؤال التالي: مَن الذي أعطى هذا الحكم بأن لا اعتبار ولا حجية للعقل؟!

هل هو العقل أم شيء آخر، ولا قائل بشيء آخر للعقل، إذاً لا بدَّ أن يكون العقل هو من جعل لنفسه اللااعتبارية واللاحجية.

نقول: إنَّ هذا القول لازمه عدم قبوله؛ وذلك لأنَّ قوله هذا: (لا اعتبار ولا حجة للعقل) حكم، فهو بهذا المعنى لا يكون حجة، يعني هو يقول: إنِّي غير حجة. فهو يحاول أن ينفي بينما هو يثبت هذا الأمر.

فلازم القول الأول إثبات الحجية والاعتبار للعقل.

إذاً هذا القول ليس بصحيح؛ لأنَّ صحته تؤدي إلى بطلانه[1].

2ـ مناقشة القول الثاني (دوره التأسيس): إنَّ هذا القول ـ إثبات الحجية المطلقة للدين بوساطة العقل، ثمَّ يستلم الدين زمام الأمور ـ غير صحيح وخالٍ من الدقة؛ لأنَّ نفس الدين فيه تيارات وفرق وطوائف، فإن لم نستطع الولوج بعقولنا إلى الدين، فمَن سوف يحدد الطائفة والفرقة الحقة التي توصلنا إلى بر الأمان؟!

وأيضاً ما هو السبب وراء هذا التبعيض، هل هناك ملاك واقعي وسبب قطعي وراء هذا التقسيم؟

فإن كان فلماذا لا يبرزه القائل بالتبعيض. وأمَّا ما ذكر من بعض

---

(1) كما أننا أثبتنا تواً بكون حجيته ذاتية كالبياض أبيض، فراجع.

الاستحسانات، فهي لا تسمن ولا تغني من جوع.

فإذاً هذا القول لا ينهض بالاعتبارية، فنرفع اليد عنه.

وكذلك لو قلنا بأنَّه حجة ومعتبر في بعض العلوم دون العلوم الأخرى، فإنَّ هذا القول تهكم بلا دليل ولا اعتبار مفيد للقطع.

3ـ **مناقشة القول الثالث**: لو قلنا بأنَّ اعتبار العقل مطلق وفي جميع الأحوال، نأتي ونتساءل ونسأل أصحاب العقول عن بعض الأمور الجزئية والاعتبارية، فهل يمتلك العقل الجواب عنها، أم يقف متحيراً لا يستطيع الحكم عليها ولا تصور ذاتياتها من دون ضياء ونور يرشده فيها، وأمثلة ذلك كثير:

لماذا سن البلوغ عند النساء في 9 وعند الرجال في 15؟

لماذا حرمت الميتة؟

لماذا يصح العقد بإذن الولي وبدونه لا يصح؟

ما هي النعمات التي يحصل عليها الإنسان في الجنة؟

ما أنواع العذاب التي تحصل للإنسان في عالم البرزخ؟

وهكذا لو فتح باب التساؤل لوجدتها صفحات واسعة وكبيرة ولا يملك العقل الخاص أيَّ جواب عنها؛ لأنَّه هو يقول بأنني لا أملك الحدّ الأوسط للحكم عليها.

نعم، قد تذكر بعض الأجوبة ولكنها ليست أجوبة قطعية بل استحسانية، وفرق فارق، فإنَّ الثاني يؤدي إلى الظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً.

بل نقول: هناك نوع من التلائم والتوافق بين الدين الحق والعقل فأحدهما مكمّل للآخر ـ كما ذكر في محله ـ ويقوم دور العقل في إثبات الدين وتعيين أحقيته وإثبات المعجزة والدفاع عنه، ودور الدين تكامل العقل بالأمور الاعتبارية الشرعية والشخصية الجزئية التي لا يستطيع الولوج إليها.

إذاً، لا يمكن التمسّك بهذا القول: (حجيته مطلقة في جميع الأحوال).

4ـ تأييد القول الرابع: إذاً لا يبقى لنا إلَّا أن نقول: إنَّ العقل معتبر وحجة ولكن ليس مطلقاً، بل يخرج من دائرة حجيته واعتباره بعض الأمور وهي القضايا الشخصية الجزئية والاعتبارية[1]، بالتوضيح التالي: إنَّ العقل العام سواء أكان برهانياً أم غير برهاني، هو الحاكم المطلق والوحيد في إثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، في مطلق القضايا.

وينقسم الحكم بلحاظ الواسطة، فتارةً يكون حكمه بدون الاستفادة من الأدوات المعرفية المساعدة له ـ كالحس والتجربة والوحي ـ كما في حكمه بقضية: استحالة اجتماع النقيضين[2] ،وحكمه بأنَّ الكلّ

---

(1) كما سيأتي بيانه.

(2) وهذه من الأحكام الواضحة والبديهية ولكن يحتاج تصورها إلى تفكر، فحينما نقول استحالة اجتماع النقيضين معناه: لا يمكن أن يكون هذا الشخص موجود ولا موجود في نفس الوقت، لإنَّه إن كان موجوداً سلب عنه اللاوجود، وإن كان لا موجود فسلب عنه الوجود، ولا يمكن أن يكون موجوداً ولا موجوداً؛ لأنَّه إذا انطبق عليه الحكم الأول فلا ينطبق الثاني، وهذا ما يعبّر عنه باستحالة اجتماع النقيضين.

وأيضاً حينما نقول: استحالة ارتفاع النقيضين، مرادنا أنَّ الشخص لا يمكن أن يرتفع عنه الوجود واللا وجود، فإن ارتفاع الأول (الوجود) يلزمه الثاني (اللاوجود)، وإذا ارتفع الثاني

أعظم من الجزء[1].

وأخرى يكون حكمه بالاستعانة بها، كما في حكمه على القضايا الحسية، فحينما يرى شيئاً كروي الشكل يحكم عليه بكونه كروياً، فهذا الحكم يكون بالاستعانة بالنظر، فحكم العقل بكون هذا الشكل كروياً، وهذا الجدار أبيض مستعيناً بالبصر في حكمه، ومرّة أخرى يحكم على الحديد بكونه يتمدد بالحرارة مستعيناً بالتجربة، وثالثة يحكم بكون صلاة الصبح ركعتين مستعيناً بالوحي، وهكذا.

ثمَّ هذه الأحكام مرّة تكون قطعية بغض النظر عن كون الحكم بنفسه[2] أم بتوسط غيره[3]، وأخرى تكون ظنية، كحكمه بعدم وجود سكان على كوكب آخر، ولكن لا على نحو القطع واليقين، بل مع احتمال الطرف الآخر (أي احتمال عدم وجود سكان على كوكب آخر).

ثمَّ تنقسم أحكام العقل بلحاظ المبادئ التي يعتمد عليها في الأحكام[4] فتارةً تكون غير برهانية، أي قطع العقل بدون الاعتماد على الاسباب الذاتية للنتيجة، كحكمه القطعي بأنَّ هذا الجدار أبيض فحكمه هنا من دون توسط الاسباب الذاتية بين الجدار والبياض، وتارةً تكون برهانية، أي

(اللاوجود) يلزمه الأول (الوجود)، ولا ثالث بينهما.

(3) كما لو قلنا بأنَّ جزء التفاحة أصغر من كلِّ التفاحة، وهو حكم قطعي، وهذا التعبير يطلق عليه الكلّ أعظم من الجزء.

(1) كما في حكم العقل باستحالة اجتماع النقيضين، فإنَّ حكمه هذا قطعي.

(2) كما في حكم العقل بأنَّ هذا الجدار أبيض بتوسط النظر، فإنَّ حكمه هذا قطعي، إذا كانت الباصرة سالمة من المرض.

(3) وهذا البحث ـ بلحاظ المبادئ ـ يبحث في الصناعات الخمس من علم المنطق.

قطع العقل بحكمه عن طريق معرفة الأسباب الذاتية للنتيجة.

إذاً، حكم العقل الخاص معتبر وحجة بشروطه الخاصة.

من الواضح لحدود العقل؟

يبقى الاستفسار التالي: مَن وضع له هذه الحدود؟

والجواب: حينما أشرنا إلى أنَّ اعتبار العقل محدود بحدود، وهذه الحدود بمثابة الأحكام وقلنا سابقاً إنَّ الحاكم الوحيد المطلق في مملكة الإنسان هو العقل، فيكون هو الذي وضع هذه الحدود لنفسه، ولو فرضنا أنَّ غيره وضعها فننقل الكلام إلى ذلك الغير هل هو معتبر عند العقل ومن الذي أوجد هذا الاعتبار عنده، فإن كان العقل فيكون قد حدّد هذه الحدود بموافقة العقل، فيكون هو من أعطى الحدود، فالعقل هو القاضي وكما يحدّد غيره فهو يحدّد نفسه.

أمَّا ما هي هذه الحدود، فهل هي حدود وضعية توافقية اعتبارية مثل الحدود الوضعية الموجودة بين الدول أو القوانين الوضعية والتي تتغير من وقت إلى آخر ومن حكومة إلى أخرى كاللغة أم هي حدود واقعية نفس أمرية تكوينية، غير قابلة للاعتبار ولا للوضع، فأنَّ النار حارة تكويناً سواء أسميناها ناراً أم ماءً أم أيَّ شيءٍ آخر؛ لأنَّ الإحراق والتسخين من ذاتياتها.

فهل حدود العقل من قبيل الأول، أم من قبيل الثاني؟

إن كان الأول فلازمه التسلسل والسفسطة؛ لأنَّ الحاكم الأخير لا بدَّ أن يكون اعتباره لأمر تكويني وإلَّا يلزم اعتباره لاعتبار فيتسلسل، فلا بدَّ أن تكون حدوده التي يحدّدها لنفسه ولغيره من النوع الثاني ـ أي حدود

تكوينية نفس أمرية ـ لكون حكومته خالية من الاعتبارات، فهو يحكم بعدم استطاعته تجاوز هذه الحدود، لا أنَّه يستطيع التجاوز ولم يفعَل.

ولكون أحكامه يجب أن تكون كلية وثابتة وواقعية، فيجب أن يقع حكمه على الأشياء والطبيعة الحقيقية الكلية والثابتة؛ لكي يكون حكمه قطعياً وثابتاً وغير متغيّر؛ لأنَّه يستحيل عليها التغيّر، فيبقى حكمه ما بقيت وهي باقية، أمَّا الطبائع والأشياء الجزئية فحكمه فيها لا يكون قطعياً؛ لعدم استحالة تغيّرها[1].

فالهويات الشخصية الثابتة التي تكون أنواعها في أشخاصها يمكن أن يتعلق بها البرهان؛ وذلك لكون تشخصها عين ذاتها، فلا احتمال لتغيّرها أو عدم ثباتها.

فتحصّل ممَّا ذكرنا:

إنَّ الأحكام العقلية البرهانية اعتبارها ذاتي من نفسها مثالها مثال

---

(1) ولكن قد تعقل الأشياء الجزئية بنحوٍ كلي بالعرض، أي بلحاظ مبادئ أنواعها، فهنا المعقولية تكون للكلية من حيثية عروضها للشخص الجزئي لا لنفس الشخص الجزئي، قال الشيخ الرئيس: «الأشياء الجزئية قد تُعقل كما تعقل الكليات من حيث تجب بأسبابها، منسوبة إلى مبدأ نوعه في شخصه يتخصص به كالكسوف الجزئي، فإنَّه يعقل وقوعه بسبب توافي أسبابه الجزئية، وإحاطة العقل بها وتعقلها كما تعقل الكليات، وذلك غير الإدراك الجزئي الزماني لها الذي يحكم أنَّه وقع الآن أو قبله، أو يقع بعده، بل مثل أن تعقل أنَّ كسوفاً جزئياً يعرض عند حصول القمر وهو جزئي ما وقت كذا في مقابلة (برج) كذا، ثمَّ ربَّما وقع ذلك الكسوف ولم يكن عند العاقل الأول إحاطة بأنَّه وقع أو لم يقع وإن كان معقولاً له على النحو الأول؛ لأنَّ هذا إدراك جزئي آخر يحدث مع حدوث المدرَك ويزول مع زواله، وذلك الأول يكون ثابتاً الدهر كله وإن كان علماً بجزئي، وهو أنَّ العاقل يعقل أنَّ بين كون القمر في موضع كذا وبين كونه في موضع كذا يكون كسوف معيّن في وقت من زمان أول الحالين محدود عقله ذلك أمر ثابت قبل كون الكسوف ومعه وبعده». الإشارات والتنبيهات، الشيخ الرئيس: ج3، ص308.

أشعة الشمس التي تعطي النور لذاتها، فالنور هو منوّر بنفسه وينوّر غيره، كذلك حجية واعتبار العقل ذاتية له، أي لا يحتاج إلى جعل حجية من آخر، ومحدودة بدائرة الموضوعات الكلية الحقيقية، والشخصية الثابتة[1].

إنَّ الموضوعات الخارجة عن حكم العقلي البرهاني، هي:

أ. الموضوعات الاعتبارية التي اكتسبت وجودها من اعتبار المعتبر لها، كالأحكام الشرعية والقوانين الوضعية، التي تكون ملاكات أحكامها غائبة عن العقل.

ب. الموضوعات الشخصية المتغيرة التي لا سبيل للبرهان عليها، كما حقّق في محله.

وهذه المستثنيات هي التي تقع فيها المغالطة، وتكون مصيدة للجهال والمتسلقين على جدر المعرفة من دون ترتب وتعليم مدرسي طبعي، فيظن أنَّ للعقل الخاص اليد الطولى عليها، فيقع في الهاوية أو يوقع غيره بها.

---

(2) عندنا الشخص المتغيّر أمثال: زيد، وعمرو، وبكر، فهذه مصاديق شخصية ومتغيّرة، وعندنا شخصية ولكن غير متغيّرة كأمثال الأنواع المنحصرة بشخصها، و هي العقول وغيرها فالبرهان يشمل الثاني دون الأول؛ لتغيّره.

المبحث الثالث:
الاتجاهات المخالفة وتقييمها

ممَّا تقدم تبيّن لنا حدود اعتبار وحجية العقل البرهاني، وقد افترق الناس عن الطريق القويم والصراط المستقيم إلى ما شاء الله، فلم يبقَ إلَّا من اعتمد العقل الخاص واتخذ طريقه، وإلَّا كلُّ مَن اتخذ غيره فقط ضلَّ وانحرف عن المنهج القويم.

مثال الانحراف عن المنهج العقلي

قبل أن نبيّن الاتجاهات المنحرفة عن المنهج العقلي، لا بأس بذكر تقريب لما نحن فيه من الافتراق عن المنهج المستقيم الذي لا إفراط ولا تفريط فيه، ففي عالمنا الإسلامي يمكن التمثيل لشبه هذا الصراع المحتدم ولكن ضمن دائرة أصغر (في دائرة علم الفقه): يوجد في علم الفقه ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: الذي يتبنى اعتبار العقل في نطاق أوسع من حدوده، فيستدل على الدين بواسطة الاستحسان والرأي؛ اعتقاداً منه أنَّ كلَّ حكمٍ عقلي هو قطعي وبرهاني، وغفل عن أنَّ القطعي محدود ومحصور بصور خاصة.

الاتجاه الثاني: عكس الاتجاه الأول، وهو الذي يحدّد العقل بدائرة أضيق من حدوده وفي بعض الأحيان يسلبه كل ما له من الاعتبار مستدلين بأدلة

واهية، والتيار الحق الذي يعطي العقل موقعه ويحده بحدوده، قال **الشهيد الصدر** رحمه الله: «شهد تاريخ التفكير الفقهي اتجاهين متعارضين في هذه النقطة كلّ التعارض، يدعو **أحدهما** إلى اتخاذ العقل في نطاقه الواسع الذي يشمل الإدراكات الناقصة، وسيلة رئيسية للإثبات في مختلف المجالات التي يمارسها الأصولي والفقيه. **والآخر** يشجب العقل ويجرده إطلاقاً عن وصفه وسيلة رئيسية للإثبات، ويعتبر البيان الشرعي هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن استخدامها في عمليات الاستنباط[1].

الاتجاه الأول: مدرسة الرأي والاجتهاد[2] ، وهي واضحة المعالم في اتجاهها المنحرف عن المنهج المعتدل يقول **السيد الشهيد** رحمه الله: «وتطالب باتخاذ العقل بالمعنى الواسع الذي يشمل الترجيح والظن والتقدير الشخصي للموقف، أداة رئيسية للإثبات إلى صف البيان الشرعي، ومصدراً للفقيه في الاستنباط، وأطلقت عليه اسم الاجتهاد.

وكان على رأس هذه المدرسة أو من روادها الأولين أبو حنيفة المتوفّى سنة (150هـ)، والمأثور عن رجالات هذه المدرسة أنَّهم كانوا حيث لا يجدون بياناً شرعياً يدل على الحكم، يدرسون المسألة على ضوء أذواقهم الخاصة وما يدركون من مناسبات، وما يتفق عنه تفكيرهم الخاص من مرجّحات لهذا التشريع على ذاك، ويفتون بما يتفق مع ظنهم وترجيحهم ويسمون ذلك استحساناً أو اجتهاداً»[3].

---

(1) المعالم الجديدة للأصول، محمد باقر الصدر، ص35.

(2) وهي مدرسة فقهية قامت منذ أواسط القرن الثاني مؤسسها أبو حنيفة النعمان، وكان يعتمد على الاستحسانات العقلية كدليل بالإضافة للقرآن والسنَّة.

(3) المعالم الجديدة للأصول، محمد باقر الصدر، الطبعة الثانية 1975م، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، الناشر: مكتبة النجاح طهران، ص36.

الاتجاه الثاني: الأخباريون والمحدّثون، قال **السيِّد محمد باقر الصدر** رحمه الله: «وأمَّا الاتجاه الآخر المتطرف في إنكار العقل وشجبه الذي وجد داخل نطاق الفكر الإمامي، فقد تمثّل في جماعة من علمائنا اتخذوا اسم «الأخباريين والمحدّثين» وقاوموا دور العقل في مختلف الميادين، ودعوا إلى الاقتصار على البيان الشرعي فقط، لأنَّ العقل عرضة للخطأ وتاريخ الفكر العقلي زاخر بالأخطاء، فلا يصلح لكي يستعمل أداة إثبات في أيِّ مجالٍ من المجالات الدينية»[1].

الاتجاه الثالث: وهو الاتجاه المعتدل الذي يتمثّل بجلِّ أتباع مدرسة أهل البيت، يقول **السيِّد الصدر** رحمه الله: «ويقف بين هذين الاتجاهين المتطرفين اتجاه ثالث معتدل يتمثّل في جلِّ فقهاء مدرسة أهل البيت، وهو الاتجاه الذي يؤمن بأنَّ العقل أو الإدراك العقلي وسيلة رئيسية صالحة للإثبات إلى صف البيان الشرعي، ولكن لا في نطاق منفتح، بل ضمن النطاق الذي تتوفر فيه للإنسان القناعة التامة والإدراك الكامل الذي لا يوجد في مقابله احتمال الخطأ، فكلُّ إدراك عقلي يدخل ضمن هذا النطاق ويستبطن الجزم الكامل فهو وسيلة إثبات، وأمَّا الإدراك العقلي الناقص الذي يقوم على أساس الترجيح ولا يتوفر فيه عنصر الجزم، فلا يصلح وسيلة إثبات لايِّ عنصرٍ من عناصر عملية الاستنباط.

فالعقل في رأي الاتجاه الثالث أداة صالحة للمعرفة، وجديرة بالاعتماد عليها والإثبات بها إذا أدّت إلى إدراك حقيقة من الحقائق إدراكاً كاملاً لا يشوبه شك. فلا كفران بالعقل كأداة للمعرفة، ولا إفراط في الاعتماد

(1) المعالم الجديدة للأصول، محمد باقر الصدر، الطبعة الثانية 1975م، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، الناشر: مكتبة النجاح طهران، ص42.

عليه فيما لا ينتج عنه إدراك كامل»[1].

الاتجاهات المخالفة للعقل البرهاني

إنَّ المشكلة الكامنة وراء الانحراف عن المنهج العقلي الخاص؛ هي الإفراط أو التفريط في العقل.

فتحديد المنهج العقلي في منهج دون آخر (بدون دليل) يؤدي إلى الزيغ، وهذا ما عمله أصحاب المناهج المنحرفة؛ حيث تارةً حددوه بالعقل التجريبي، وأخرى بالعقل الأخباري، وثالثة بالعقل الشهودي[2]. فكلٌّ من

---

(1) المعالم الجديدة للأصول، محمد باقر الصدر، الطبعة الثانية 1975م، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، الناشر: مكتبة النجاح طهران، ص36.

(2) ويمكن أن يعد المنهج العرفاني والإشراقي هما مصداق لهذه الطائفة، ولكن يختلفان عن بعضهم بـ:

«إنَّ الإشراق يكشف الحقيقة، أمَّا العرفان هو تحقق الحقيقة، فالإشراق يُكتفى بالجانب النظري فيه وبشكلٍ أقوى من التطبيق، وأمَّا العرفان فإنَّه جامع للجانب النظري والعملي معاً». شادي علي فقيه، الرؤية الكونية من المادية إلى العرفان، الناشر: دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع، إخراج: مركز العلم للدراسات، الطبعة الأولى، سنة الطبع:2002. ص123.

الإشراقيون، يعتبر شيخ الإشراق (الشيخ شهاب الدين السهروردي (587-549 هـ)) زعيم مدرستهم في العصر الإسلامي. وهو ينسب في أول كتابه «حكمة الإشراق» امتداد هذه المدرسة لجماعة من الفلاسفة المتقدمين اليونانيين أمثال: فيثاغورس، وأفلاطون، معتبراً أنَّهم كانوا من دعاة الحكمة الذوقيّة الإشراقيّة، زاعماً أنَّ أفلاطون هو شيخ الإشراقيّين. ونحن لا يهمّنا مدى صحّة هذا الزعم، وأنَّه كان بصدد تأييد فلسفته هذه بانتسابها للحكماء السابقين أم لا، وما يهمّ هو أنَّه أسّس مدرسةً في الأوساط الإسلاميّة، تختلف عن المدرسة المشائيّة، عُرفت بِاسمِ المدرسة الإشراقيّة، أو بفلسفة الإشراق.

الإشراق يعني انبثاق النور. ومن خلال هذه الكلمة أراد أصحاب هذه المدرسة أن يبيّنوا المنهج الذي يعتمدون عليه، بحيث يميّزهم عن المنهج المشّائي. ←

← يقول المحققون: إنَّ سبب ذلك هو أنَّ العلم نورٌ يُشرق في قلب العارف، فهم يعتقدون «أنَّ مثل القلب مثل المرآة المجلوّة المصقولة، محاذياً للّوح المحفوظ وما عليه من العلوم والحقائق الإلهيّة، فكما لا يمكن أن يكون شيءٌ محاذياً للمرآة المصقولة ولا يؤثر فيها، فكذلك لا يمكن أن يكون شيءٌ محاذياً للوح المحفوظ وهو لا يرى في المرآة القلبيّة الصافية». فهم يدّعون أنَّهم بتطهير القلب من أدران الذنوب، وبصقل النفوس من أوساخ التعلّقات الدنيويّة، تشرق العلوم والمعارف في قلوبهم، فيطّلعون على حقائق الأشياء.

ويميّز هذه المدرسة عن غيرها من المدارس اعتمادها في تحصيل معارفها على عدة أمورٍ:

الأول: العقل والاستدلال المنطقيّ والفلسفيّ، فالسهروردي يقول في كتابه «المشارع والمطارحات»: «ومن لم يتمهّر في العلوم البحثيّة، فلا سبيل إلى كتابي الموسوم بحكمة الإشراق. وهذا الكتاب ينبغي أن يقرأ قبله وبعد تحقيق المختصر الموسوم بالتلويحات».

الثاني: الذوق الفطري وصفاء الباطن، «وأمَّا أنت إذا أردتَ أن تكون عالماً إلهيّاً من دون أن تتعب وتداوم على الأمور المقرّبة من القدس، فقد حدّثتَ نفسَك بالممتنع، أو شبيه الممتنع، فإن طلبتَ واجتهدت لا تلبث زماناً طويلاً إلّا ويأتيك البارقة النورانيّة وسترتقي إلى السكينة الإلهيّة الثابتة».

فهذه المدرسة في الوقت الذي تتحرّى فيه الدليل العقليّ والاستدلال المنطقيّ والفلسفيّ، تبتني على كمال الطالب المعنوي، ورياضته الروحيّة في جلاء الباطن حتى يصفو القلب من الكدورات، فتشرق في أعماقه المعارف. وعلى هذا فإنَّ حكمة الإشراق تسعى لإيجاد الرابطة بين عالم العقل والاستدلال وعالم الإشراق، وبعبارةٍ أخرى بين الاستدلال العقلي والشهود الباطنيّ، فهي برزخٌ بين الفلسفة المشائيّة والكلام وبين التصوّف، فمزجت بين المنهجين ممَّا جعلها مدرسةً مستقلّةً.

بل تترقى هذه الفلسفة لتقارن بين المشاهدة والبرهان: «وأمَّا من حيث وجدان الدليل وتأكد البرهان المبين، فإنَّ المشاهدة أقوى من الاستدلال (...) وقد سئل بعض الصوفيّة: ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال: قد أغنى الصباح عن المصباح».

الثالث: اعتمادها على ظواهر القرآن الكريم، والسنَّة الشريفة، وهذا ملحوظ في كثيرٍ من أبحاثها ومطالبها، فعلى سبيل المثال عند تفسيره للوطن يقول السهروردي: «ومعنى قوله تعالى في كلامه المجيد:﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾، فالرجوع يقتضي سابقة الحضور، ولا يقال لمن ما رأى مصر: ارجع إلى مصر. وإيَّاك أن تفهم من الوطن دمشق أو بغداد وغيرهما، فإنَّهما من الدنيا، وقد قال الشارع: (حبُّ الدنيا رأس كلّ خطيئة).

وعلى هذا تكون هذه الفلسفة قد مزجت بين العقل والشهود والقرآن الكريم والسنَّة ←

هذه الطوائف تدعي العقل وتحدّه بمناهجها المعرفية الخاصة، مع أنَّهم لم يختاروا على التحقيق ولم يتعبوا أنفسهم في إثبات اعتبارها وحجيتها؛ لذا زاغوا عن الطريق الحق، وتوهموا الكمال ووقعوا في التخبطات.

وقد تتخذ صورة رابعة بطمس أبده البديهيات العقلية وإنكار الواقع أو إنكار تحصيل العلم منه، وخامسة باتخاذ رؤى كونية التقاطية واستحسانية ليس لها من الواقع شيء، وسادسة بألوان أخرى لأغراضها الشخصية تنحى منحى مخالفاً، وسابعة وثامنة ...

ومصاديقها صعبة الأحصاء، وقد وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام بوصف دقيق جامع شامل، حين قال: «لا ترى الجاهل إلَّا مُفرِطاً أو مُفرّطاً»[1]، فوصف الجهل هو استحقاقهم الواقعي.

ونحن هنا سوف نشير إلى بعضٍ من هذه الطوائف؛ ليتبيّن لنا الخلل الكامن فيها وتجنبه بما أوتينا من قوة، وسنذكر: التجريبيين، الأخباريين، الإشراقيين، السوفسطائيين:

أوَّلاً: التجريبيين

لاعتقادهم برؤى كونية خاصة نتجت من عدم الإيمان بما وراء المادة

← الشريفة، طبعاً على مستوى النظريّة.

الرابع: سعت هذه المدرسة لتقدّم رؤيةً كونيّةً، عن الوجود والكون والله والآخرة. ومن هنا نجدها تتعرّض لأهمّ النظريّات التي ذكرها أفلاطون، وتدافع عنها بأسلوبها وطريقتها، وهي المثُل الأفلاطونيّة، والروح، والاستذكار.

(1) نهج البلاغة، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الكلمات القصار.

انعكس ذلك على تفسيرهم للعقل[1]، فهو عندهم عبارة عن مجمع الحواس، فبدون الحواس لا عقل، فكأنَّه عبارة عن صفحة خالية لها قابليات متعددة ولا تعمل بدون أدواتها (الحواس)، يقول جون لوك: «العقل صفحة بيضاء، والتجربة تنقش عليها مختلف المعارف»[2].

فهذه الطائفة لم تفهم العقل بحقيقته، فنظروا إلى الجانب الذي يتناسب مع أهدافهم وغاياتهم وما اعتقدوه في ثقافاتهم القبلية فتأثرت بمنهجهم المعرفي، إذ لا شيء عندهم وراء العقل المادي، فأخذوا يسرّون أحكامه إلى ما لا يستطيعون الوصول له من المجردات والماورائيات.

فهم يعتقدون بالعقل الذي تؤمنه لهم التجربة ضمن شروطها، فما لا تقام التجربة عليه لا حيلة للوصول إليه ويبقى في حيّز الظن.

فجعلوا للعقل التجريبي السلطة الكاملة والعامة والشاملة، فلا شيء خارج نطاقه وحريمه، حتى في التفسيرات الكونية، وكانوا يدعون إلى الاقتصار في تفسير الكون على الظواهر وحدها دون الاستعانة بأيّة مبادئ خارجية أو عوالم أخرى خلاف الظواهر، فأدّى ذلك إلى اعتقادهم أنَّ الحق عندهم كما يرونه[3].

---

(2) وهذه المسألة تشير إلى الأهمية البالغة لعلم المعرفة في تنقيح وتحديد المنهج المعرفي على ← ← التحقيق، وكذلك الأهمية القصوى للدراسة المنطقية والتي تعد القاعدة لعلم المعرفة كما ذكر في محله.

(1) وليس كلُّ من يذهب إلى هذه المسألة فهو تجريبي؛ لأنَّ العقليين أيضاً يقبلون هذه المسألة رغم أنَّ ظاهر كلامهم يتفق مع الماديين، يقول سبينوزا: «وهكذا نرى أنَّه يجب علينا أن نستخرج كلَّ أفكارنا من الأشياء، أي من موجودات ملموسة».

(2) انظر: الموسوعة الفلسفية، عبد المنعم الحنفي، دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ص249.

وبقوا في حيرة حينما أدخلوا العقل في المختبر وشاهدوا ما يحوي من آثار عظيمة وقدرات هائلة لا يمكن التشكيك بها فضلاً عن إنكارها، فقد أذهلهم بما يحوي من أسرار مادية ومجرَّدة، وأوصلت المنصف منهم إلى التسليم بوجود قوى غير مادية ورائه، وأسرت الملحد شكوكه، وابتدأ يزلزل إلحاده ويقرّ ويعترف بوجود الماورائيات وخالق عظيم لهذا العقل[1].

وأمَّا المتهتك، فلم ولن يلتزم بما حرّم العقل عليه، فقام بتكليفه ما لا يطيق، فأثّر ذلك على نظره وما وصل إليه.

مثله مثل العاصي في الشريعة، فأنَّه يعلم بأنَّ هذه الأحكام لصالحه ومن خالق عظيم ولكن لم يأخذ ما أتاه، وبقي معانداً في ضلاله القديم، لم تنفعه الموعظة ولم يخيفه الوعيد، وأخذ يصول ويجول مغالطاً لإقناع نفسه وإيهامها بكونها على صراط مستقيم، عبر إنكاره المسلَّمات، وأخرى بتأويله الأخطاء، وثالثة باعتباره لميزان شخصي ويحدّد العقل ويجعله محكوماً؛ حتى وصل في طغيانه إلى إنكار الواضحات، بل حتى البديهيات والفطريات.

تقييم هذه الطائفة

لقد أصاب هؤلاء القوم في جزء وأخطأوا في أجزاء، فصحيح أنَّ العقل التجربي معتبر وحجة ولكن ليست الحجة والاعتبار محصوران فيه، وليست حجيته مطلقة في جميع الأمور، بل هو حجة ومعتبر في التجربة بالحدود المادية، أمَّا غيرها فليس بحجة فيها ، فغفلوا حينما جعلوه أسيراً

---

(1) انظر: عجائب العقل البشري، راجي عنايت، دار الشروق، الطبعة الخامسة 1415 هـ 1995م، بيروت لبنان.

للتجربة، كما أسروا حكمه ـ بما فيه من علائق مادية ـ إلى المجردات، مع علمهم باستحالة عمل كلّ حاسةٍ مكان أخرى وإثباتهم للمجردات بنحوٍ إجمالي، فكذا لا يمكننا أن نحس المجردات ولا أن يعقل المحسوس بما هو محسوس، وهذه المسألة من الواضحات البعيدات، قال الفارابي: «ليس من شأن المحسوس أن يعقل، وليس من شأن المعقول أن يُحس؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما له مدركه الخاص به».

وحتى المنصف منهم لم يعجبه ما وصلوا إليه وما اعتقدوا به؛ لأنَّ المتطلبات الإنسانية أعم من الماديات، بل الماديات وغيرها من البعد الماورائي التعلقي والذي لا يحصر بالمختبر.

ثانياً: الأخباريين

لسبب أو لآخر[1] تعمدت طائفة ـ ليست خاصة بدين معيّن ـ بالاستهزاء بالعقل، فأجحفوه حقه، وجعلوه تابعاً، وجعلو النقل هو القائد باعتبار أنَّ النقل جاء من قبل حكيم خبير تعالى عمَّا يصفون، وأمَّا العقل فمن أناس كفّار خارجون عن الاعتقاد والدين، يتفلسفون ويدعون لأنفسهم العصمة وتقديم العقل عندهم من باب تقديم الأشخاص على الله تعالى، فقد جاء بها **أرسطو** اليوناني، ولا تمتّ للواقع بأيِّ صلةٍ، بل هي وجهة نظره وعدم إيجاد مشكلة فيها إلى الآن ليس دليل على كونها معصومة؛ لذا استخدموا أساليب الترغيب والترهيب والاستهزاء في محاربة العقل والفلاسفة، ينقل التاريخ أنَّ أحمد بن حنبل كان يقول: «لا تنظر في

---

(1) الأسباب وراء انحراف هذه الطائفة كثيرة، سنذكر قسم منها في أسباب إقصاء العقل، وأهمها: أسباب سياسية، أسباب شخصية، أسباب دينية. وبيان الأسباب سيأتي فيما يلي من الصفحات.

كتب أبي عبيد، ولا فيما وضع إسحاق ولا سفيان ولا الشافعي ولا مالك، وعليك بالأصل»، فكان يكره أن يكتب شيء من رأيه أو فتواه، حتى لقد جاءه أحدهم وقدّم له كتاباً فيه كلام له، فغضب ورماه من يده، فإنَّه كان يرفض العقل كأداة للبحث في أمور الدين[1].

تقييم هذه الطائفة

نفس كلامهم هذا هل هو قطعي أم لا؟

فإن كان لا فلا اعتبار له، وإن كان قطعياً فمن أين اكتسب القطعية؟

هل هو أولي بديهي؟

هل هو أمر فطري؟

هل هو مبرهن عليه؟

وكلُّ هذه لا تنفع أن تكون إجابات، فكلامهم لا هو بديهي وإلَّا لما اختلف فيه اثنان إلَّا السفسطائيون المنكرون، ولا هو أمر فطري؛ لأنَّ الفطرة السليمة هي العقل بصورته الأولى وهي خارجة عنه، ولا هو مبرهن عليه؛ لأنَّه يلزم من نفي العقل الخاص إثباته، فكلُّ ما تقولوه وليد أسباب وهمية ليس لها واقعية في الحقيقة.

ثمَّ لو سلّمنا أنَّ كلامهم هذا فيه وجه من الصحة، وأننا يجب اتّباع الدين، فنتسائل هنا: أيُّ دينٍ يجب أن نتبع، ولقد افترقت الأديان إلى طوائف ونحل وملل، فأيُّ طائفةٍ هي المحقة والتي تمثّل الدين الذي أمر به الله تعالى؟

(1) انظر: العقل وفهم القرآن، الحارث بن أسد المحاسبي، قدم له وحقّق نصوصه حسين القوتلي، دار الكندي ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1402 هـ 1982م، ص129، وانظر: ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد ص194-192.

فإن كانوا يقولون ما جاء به الكتاب والسنَّة. نقول: اختلفت السنَّة واختلف تأويل الكتاب، فأيُّ طريقٍ نتبع وفق هذه التأويلات؟

فإنَّ الكلَّ يدعي أنَّه الصراط المستقيم، ولا أحد يؤمن بكونه ضال، ومع ذلك يبقى على نفس الطريق.

فقد ذهبت بعض الطوائف إلى التصويب، فجعلوا الله تعالى تابعاً لأحكامهم وآرائهم.

لم يقنعوا بعقول الآخرين فاتبعوا عقولهم رغم أنَّهم ينفون الحجة عنها!

فكثر اللغط والخلط، وأخذ الكلُّ يدّعي لنهجه الصحة والسلامة وأنَّه هو القويم، وفي مقابل ذلك يكفّر من خالفه ويفسقه، فحصل الانشقاق والتفرّق وظهر العداء والتفرّد.

إذاً، لا يخفى ما للمنهجِ من ضعف لرجوعِ حكمهم عليهم، فأثبتوا العقل من حيث أرادوا نفيه!

فالعقل هو الذي يثبت الوحي ويقوم بالاستدلال المنطقي البرهاني على الدين الصحيح، وحينما يثبته لا يتركه، بل يبقى يدافع عنه ويدفع الشبهات الواردة عليه، فدوره دور التأسيس والمحافظة لا التأسيس فقط.

وكذلك وجود بعض المدسوسات من هنا وهناك تجعل الدين عرضة لكلِّ مغرضٍ، فيفقد عالميته وتكامله بسببها.

بالإضافة إلى نظرتهم الضيقة الوحدانية التي لا تتلائم مع مقتضيات كلِّ عصرٍ، وهو بحدِّ ذاته مبطل لهذه الرؤية الضيقة؛ لأنَّ الدين الحق باقٍ ما بقي الناس.

ثالثاً: الإشراق والشهود

يذهب هذا الاتجاه إلى أنَّ قلب الإنسان صفحة بيضاء نقشت عليه كلّ المعارف والعلوم، ونتيجة للذنوب وللموانع التي أُوجدت على قلبه حجباً لم يستطع أن يجترها، ولا تذكرها، فمثاله كالمرآة التي حينما تكون صافية تعكس بصورة واضحة على كلِّ ما يقع أمامها، وأمَّا حينما تتعرض للأتربة والأوساخ؛ فلا تعكس بصورة واضحة وجلية.

فكما أنَّ الناس يحتاجون القائد في تسهيل أمورهم وتنظيمها، فكذا الجسد وجوارحه تحتاج إلى قائد يرتب الأحكام فيما بينها ويعطي لكلٍّ منها حجيته ووظيفته وأوامره، فهم عزلوا العقل وجعلوا النفس قائمة مقامه، مثل غيرهم الذين بحثوا عن نائب يقوم مقامه، فجعلوا النقل قائداً، وبعضٌ جعل الشهود قائداً، فدنّس بقية المناهج وخطّأها؛ لمَّا وقع في مغالطة نتجت من مقدمات وأسس خاطئة.

تقييم هذه الطائفة

يمكن مناقشة هذه الطائفة من عدّة جهات:

الأولى: من جعل الشهود معتبراً؟

فإن كان بالشهود فهو باطل؛ للزومه توقف اعتباره على اعتباره و يتسلسل.

وإن كان بالعقل فتعتبر الحجية له، ولا دليل عقلي على اعتبار الشهود؛ لأنَّهم يرفضونه كمعتبر ودليل على حجية مذهبهم.

الثانية: لو سلمنا بأنَّ الشهود حجة، فهل حجيته مطلقة في العلوم

والمتعلّمين، أي من ناحية جميع المعارف وجميع الأشخاص، أم حجيته محدودة بالبعض؟

ولا يمكن التسليم بالأول؛ لملاحظتين:

الملاحظة الأولى في مقام الثبوت:

1. أهل العلم يصرّحون بأنَّ تحصيل هذه العلوم صعب؛ لكون طريقه مليء بالمخاطر والشبهات، وليس للعارف أداة قطعية للتمحيص بين المشاهدات الحقة والباطلة، فقد يتمثّل له الشيطان بصورة من الصور ويقوده من حيث لا يعلم؛ ولذا قسّمها خواص علمائهم إلى: الرؤية العرفانية الشاذة، والثانية الرؤية العرفانية السليمة[1].

2. نحن نعلم قطعاً أنَّ هناك بعض الأشخاص الذين وصلوا عبر هذا الطريق، ولكن الاقتصار على بعضٍ ممَّن ينالهم من الله الحظ العظيم لا يعني أنَّ الله تعالى جعل هذا الطريق موصلاً دون غيره، فجعله هكذا لازم العبثية لكون طريق النجاة محصوراً بطائفة معينة وهو خلاف قاعدة اللطف.

3. هناك بعض المقدمات والمصطلحات الغريبة التي لا يفهمها إلَّا من له باع كبير في هذا العلم وهم قلائل، فتبقى حجيتها واعتبارها موضع شك، إلَّا أن تدعم بالدليل القطعي.

(1) شادي علي فقيه، الرؤية الكونية من المادية إلى العرفان، الناشر: دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع، إخراج: مركز العلم للدراسات، الطبعة الأولى، سنة الطبع:2002. ص124.

الملاحظة الثانية في مقام الإثبات:

ولو سلّمنا وتنازلنا عمَّا تقدم وقلنا بأنَّها حجة، فتبقى عندنا مشكلة في المقام، وهي:

إنَّ كلام هؤلاء ليس حجة على الآخرين، فلا يستطيع نقل شيء من علومه إلَّا بالدليل، فلا يكون حجة بذاته إلا في مقام الثبوت، وهذا وإن ثبت فليس له قيمة معرفية قطعية حتى لنفس القاطع، فيبقى تابعًا للدليل الأصل الموجب للقطع ألا وهو البرهان، يقول **ابراهام ماسلو**: (رغم صدق رؤية الفنان وصاحب القدرات العقلية الخارقة، فإنَّهما لن يستطيعا إقناع الجميع برؤيتهما وما يترتب على هذه الرؤية من حقائق. لكن العلم هو الوسيلة الوحيدة لدفع الحقيقة إلى حلق المعاندين...)[1].

فالكلام في أصل مقدماته، فليس لنا أن نعتمد إلَّا على من أثبت الدليل بالقطع عصمته يكون هادياً ومرشداً ومعلِّماً، أمَّا من لم يصل إلى ذلك لا يمكننا الجزم بإيصاله إلى طريق النجاة.

إذاً، حجية هذا المنهج خاضعة لحكم العقل ولم يعتبرها بالجملة بل في الجملة. فيبقى هذا الطريق منحصراً بثلة خاصة، ومؤيَّداً بالعقل الخاص، وإلَّا فيبقى محل ظن والظن لا يغني من الحقِّ شيئاً.

رابعاً: السوفسطائيين

وضع أصل هذا المصطلح على جماعة أنكروا الواقع، ثمَّ بعد ذلك أسري إلى كلِّ مَن يشاغب ويستخدم المقدمات الجدلية في البرهان، ونحن

(1) عجائب العقل البشري، راجي عنايت، دار الشروق، الطبعة الخامسة 1415هـ 1995م، بيروت لبنان، ص8.

نشير هنا إلى الاتجاه الذي ينكر الواقع، والذي انقسم إلى طوائف كثيرة من حيثية متعلّق الإنكار، **منها**: إنكار الواقعية أساساً فلا وجود ولا واقعية أصلاً، فكلُّ ما نحن فيه وهم وشبهة. **ومنها**: إنكار كلِّ شيءٍ ما خلا وجودي أنا، فكلُّ شيءٍ حولي وهم، فقط أنا الموجود. **والثالثة**: وجود واقع وعالم ولكن لا أستطيع تحصيله. **وغيرها**، وكلُّ هذه الطوائف نستطيع درجها تحت اسم السوفسطائيون، الذين ينكرون الواقعية أو ينكرون إمكان تعلق المعرفة بها.

فنتيجة لبعض الشبهات المعرفية والأمزجة الشخصية والأسباب السياسية ظهرت هذه الطائفة، ولاقت استحسان الطبقات البرجوازية، لكونها تشغل العوام عن مناصبهم وكراسيهم وما يمتلكون، ففاقت حدَّ الواقع، وأصبحت تياراً ومنهجاً معتداً به في ذلك الوقت، ونالت الشهرة الواسعة والصيت الكبير.

تقييم هذه الطائفة

يمكننا ردَّ هؤلاء: إنَّ لازم كلامهم عدم صحته؛ لأنَّه إن لم يكن له واقعية فهذا هو المطلوب، وإن كان له واقعية فهذا خلاف الفرض، فإنَّ الفرض عدم وجود واقعية.

وبالإضافة إلى الردِّ العلمي هناك ردٌّ عملي ـ كما ينقل الحكماء ـ وهو بقطع الماء والأكل عنهم وتعريضهم للضرب والحرق، فإن اشتكوا فقد اعترفوا بوجود واقعية، وإلَّا فقد حكم على نفسه بالهلاك.

إنَّ ما عليه هذه الطائفة من تخبط ناشئ من ضعف الأساس والبنيان الفكري المتهرئ، النتائج من سياسات هدفها انزواء الناس عن العالم وانعزالهم، فلا يشكّلون عثرة في طريق اصحاب السلطات والأموال، فكذّبوا

كذبة وانطلت عليهم، بل وأصبحت تمثّل تراثاً مهماً ومنهجاً من ضمن المناهج المعرفية يُعتمد عليه في الثقافات العقدية.

الحكماء[1]

لكيلا نخلي الساحة المعرفية من بديل بعد بطلان مركزية كلِّ واحدٍ واحد من المناهج الزائغة عن المنهج الرصين، لا بدَّ من بيان الطريق الأمثل في الواقع، والذي يمثّل الاتجاه الموافق للعقل الخاص، والذي يحترم بقية المناهج من دون إفراط ولا تفريط، وهو الذي حدَّ لبقية المناهج حدودها، فنبدأ ونقول:

إنَّ الله تعالى ـ وتبعاً له الأنبياء والأئمّة ـ أوّل من وضع العقل الخاص في منزلته المتفرد بها دون إجحاف أو تعدي، بل بما حكم هو، ويمثّل الاتجاه المعتدل. وقد سار الحكماء على هذا النهج القويم والذي يعتبر الصراط الواحد والطريق الأوحد والذي لا يكون في عرضه طريق، بل كلُّ ما نعرف في طوله وخاضع وتابع له؛ لاستخدامه المنهج العقلي القويم والذي يعتمد على العقل الخاص في تحقيق وإثبات موضوعاته، ويعتمد على بقية المناهج دون إنقاص من حدودها أو تعدي عليها، بل بما هي هي، فيضع الوحي في منزلته والتجربة في موضعها والحواس في أمكنتها.

وحري بنا أن نذكر لما قد ثبت في محله أنَّ العلوم تتفاضل فيما بينها

---

(1) مرادنا من الحكماء لا ينحصر في طائفة معيّنة، بل الذين يضعون الشيء موضعه من دون بخس أو إجحاف، وهو نفسه تصرف العقلاء، وتصرف العقلاء هو وضع الشيء موضعه. (نزهة النظر في غريب النهج والأثر، عادل عبد الرحمان البدري، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: 1421هـ، المطبعة: عترت، الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، إيران. ص867).

من حيث الشرف والفضل لكن تتفاوت كذلك بأمور، منها: شرف الموضوع ومتانة الدليل المستفاد في تلك الصناعة واستحكامه[1]؛ وإذا رجعنا إلى علم الفلسفة ـ المصداق الواضح للدراسة العقلية ـ نجده قد اكتمل فيه هذان الركنان، فالفلاسفة من الناحية العملية يستخدمون البرهان والذي هو أشرف الصناعات، ونتائجه تكون يقينية وهي أشرف النتائج وغاياته معرفة الله تعالى وهي أشرف الغايات.

فهنا قد اجتمع العقلاء مع أفضل العلوم من حيث الموضوع وما استخدم في إثباتها، فيكون من أفضل الطرق وأشدها تأكيداً في النفس، فيحصل القطع الثابت لا عن تقليد؛ وبالتالي الكمال المتحد مع النفس.

الخلاصة

1. إنَّ ما ذكرناه من طوائف أكبر شاهد على الأخطار التي تواجهنا، والتي تهدف إلى بقائنا في حيّز الظلمات المعرفية، كلُّ ذلك ناتج عن عدم مراعاة العلوم العقلية وعدم الاهتمام بها وعدم اتقانها، فتقع الشطحات العلمية والتي تؤدي إلى كوارث معرفية وفكرية؛ وبالتالي عقائدية وسلوكية.

2. إنَّ هذه المناهج تثبت العقل من حيث تنفيه، وهذا دليل بذاته عن محوريته وتبعيتها له.

3. كلُّ مَن اتخذ طريقاً غير الطريق المبين يكون مصيره إلى العثرة المعرفية، والتي قد تكون مميتة في بعض الأحيان.

(1) انظر: الشرح الكبير لكتاب النفس لأرسطو، ابن رشد، ترجمة: إبراهيم الغربي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، الطبعة الأولى، ص26.

4. لا سبيل لحلِّ نزاعات بقية العلوم إلَّا بالدليل العقلي البرهاني الموضوعي، فهو الطريق الوحيد لحلِّ المتنازع فيه، فمن غير مقدور إقناع اشخاص بحجية منهجك الشعوري أو العرفاني أو الإشراقي.
5. الخطأ الذي وقعت فيه هذه الطوائف هي الحدود، فحصر المنهج بالمنهج المعرفي الذي أتبناه هو الذي أدّى إلى هذه الأخطار.
6. لا يتوهم بعضٌ أننا ننفي حجية هذه المناهج، بل على العكس نحن من أشد الناس تمسّكاً بها، ونعتبرها مكمّلة ومنيرة لطريق العقل في الجملة، ولكن على أساس احترام الحدود.
7. المنهج الذي يحترم ويضع كلَّ منهجٍ مكانه الطبيعي وهو الحاكم على البقية هو العقل البرهاني.

المبحث الرابع:
الإقصاء أسبابه ونتائجه

بعد أن بيّنا الطوائف والاتجاهات المنحرفة عن المنهج العقلي، نحاول هنا أن نبيّن أسباب الإقصاء مع بيان موجز له، ثمَّ نذكر بعض من نتائج الإقصاء المهمة على العلم والمعرفة والدِّين.

معنى إقصاء العقل

لمعرفة إقصاء العقل لا بدَّ من تعريف المصطلحين (الإقصاء، العقل) وقد عرّفنا (العقل) فيما مضى وبيّنا ما هو مقصودنا منه، وهو العقل الخاص، يبقى علينا الآن تعريف الإقصاء.

حينما يقال: إنَّ فلان أُقصي عن منصبه فالمتبادر إلى الذهن أنَّه قد أُخذ منه مكانه الذي كان يليق به، ونُحي بعيداً، ففي «لسان العرب»: «قصا: قَصا عنه قَصْواً وقُصُوًّا وقَصاً وقَصاء وقَصِيَ: بَعُدَ. وقَصا المَكانُ يَقْصُو قُصُوّاً: بَعُدَ. والقَصِيُّ والقاصي: البعيد ... وكلُّ شيءٍ تَنَحَّى عن شيءٍ فقد قَصا يَقْصُو قُصُوًّا، فهو قاصٍ، والأَرض قاصِيةٌ وقَصِيَّةٌ.وقَصَوْت عن القوم: تباعدت. ويقال: فلان بالمَكان الأَقْصَى والناحية القُصْوى والقُصْيا، بالضمِّ فيهما»[1].

---

(1) لسان العرب، ابن منظور، ج15 ص186-183.

وأمّا معنى إقصاء العقل فهو: عبارة عن زحزحته عن مكانه الذي هو مجبول عليه بالفطرة، وتسليم غيره زمام الأمور، ممّا يؤدي إلى رفض الميزان التكويني والخروج عن الجبلة الصحيحة للإنسانية والركون إلى غيرها، فتكون التصديقات كلها ظنية ولا تمثّل الواقع إلّا بالصدفة؛ وبالتالي القضاء على العلم والتعليم والقضاء على كلِّ ما يمكنه أن يكون طريقاً للواقع والحقيقة.

وعملياً إقصائه بتحكيم غيره من المناهج عليه وعدم استخدام نهجه القويم في تحصيل المعارف والعلوم.

أسباب الاقصاء

عود على بدء نقول: هناك أسباب كثيرة أدّت إلى إقصاء العقل عن مكانته، ولسنا في مقام استقصاء استقرائي كلي لهذه الأسباب، ولكن على نحو الاستقراء الناقص؛ يمكن تقسيم الأسباب إلى ثلاثة طوائف، وهي: أسباب دينية، وأسباب سياسية، وأسباب شخصية. وأمّا تفصيل الكلام فنقول:

الأسباب الدينيّة

قبل بزوغ فجر الإسلام انتشرت الأديان والمعتقدات في مناطق قريبة جغرافياً من العرب، وكان منتحلوها يقطنون في المناطق العربية أو قريب منها، وهي اليهودية وقد استقرت في الجزيرة العربية[1]، والمسيحية التي

(1) حيث ينقل التاريخ أنَّ أول من سكن يثرب من اليهود في زمن نبي الله موسى حينما لم يمتثلوا بأمره بقتل كلِّ من وجدوه من الأعداء، فاحتفظوا بواحد منهم رأفة به، ولما قربوا من مدينتهم تلقاهم الناس وشنّعوا عليهم ترك أمر رسول الله، فغيّروا طريقهم وتوجهوا نحو يثرب لما فيها من خصوبة ومرعى ومياه، فاستوطنوا فيها، وأيضاً من الأمور التي حببت لهم السكنى فيها ←

انتشرت في شبه الجزيرة العربية عن طريق التجارة والتبشير، وازدادت انتشاراً بعد غزو إبرهة الحبشي لليمن، وكان قسم من العرب قد اعتنق ديانة الصابئة، والمانوية (القائلة بأنَّ الشرَّ يرجع إلى امتزاج إله الخير وإله الشرِّ أو النور والظلام)، وكذلك المزدكية[1] (أتباع مزدك بن فاتك)، والمشركون من العرب الذين يعبدون الأصنام، وعبدة الجن وعبدة الأوثان. وكذلك الحنفاء والحمس[2]، فكانت شبه الجزيرة العربية تموج بتيارات روحية وعقائدية شتى.

وكثير من هذه الأديان والمعتقدات ـ إن لم نقل كلها ـ لها قوانين وعادات وتقاليد واقعية أو مشهورية أثّرت على التاريخ الفكري للعرب قبل الإسلام، فشوهته منذ بزوغ فجره وإلى الزمن الحالي.

← هو ما موجود في كتبهم أنَّ نبي أخر الزمان سيظهر في هذه المنطقة، فرغبة منهم من أن يكون نبي آخر الزمان من اليهود استوطنوا هناك.

(1) ومؤسسها مزدك الذي ظهر في فارس، وبنى تعاليمه على ما يصطرع عليه الناس، والذي كان من أجل خمسة أشياء، هي: الغيرة، والغضب، والثأر، والفقر، والشهوة. وهو يعتقد أنَّها مصدر الشرور في العالم، فللقضاء على الشرور لا بدَّ من القضاء على أسبابها الخمس، وليس ذلك إلَّا بإقرار شيوعية المال والنساء، وظلَّ مذهبه سائداً حتى بعد قتله من قبل أحد ملوك الفرس سنة 523م. انظر: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، محمد علي أبو ريان، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. ص84.

(2) مفرد أحمس وهو الذي يهب نفسه أو يهبه أهله للآلهة فينصرف إلى خدمتها، فكانت الأمهات ينذرن أولادهن ليكونوا حمساً إذا كتب لهم الشفاء من أمراضهم، وكان الحمس يمتنعون عن أكل الطعام الذي يحملونه معهم إلى الحرم ولا يدخلون بيتاً من شعر، ولا يستظلون إلَّا في بيوت من الجلد، وكانوا يطوفون حول الكعبة وهم عراة إن لم يجدوا ثيابهم الخاصة التي يتميزون بها. انظر: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، محمد علي أبو ريان، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. ص50-49.

لم تكن للعلوم العقلية الحظ الأوفر على المستوى الثقافي للعرب آنذاك؛ لأنَّها كانت تنتهل من المناهل المحيطة بها، بما لها من تشويهات وأباطيل ، وتلك المعتقدات كانت مشوّهة ومشوبة بالأفكار المنحطة والبدع والضلالات والخرافات، وحينما أتى الإسلام حاملاً معه الهداية والنور من ظلمات الجهل، أجاب عن بعض الأسئلة الفكرية والعقلية التي كانت في أذهان العقلاء، والتي لم تستطع الديانات والمعتقدات السابقة ـ بما تحمل من تحريف ـ لا من بعيد ولا من قريب الوصول إلى أجوبتها، فأشاد القرآن الكريم بالذاكرين للتفكر والتعقل ، فالواقع كان يعيش أزمة حقيقة من هذه الأمور، فأراد إثارة دفائن العقول وإرجاعهم إلى العقل الفطري السليم الصافي الخالي من الضمائم والخزعبلات والأمراض الموجودة في الواقع آنذاك.

ولكن بعد إقصاء القيادة الشرعية المنصّبة من قبل الله تعالى، وسيطرة الأنظمة السياسية الجاهلة على مقدرات الأمة الإسلامية، اتخذت منهج المحاربة المتواصلة للمعرفة والتعقّل، وروّجت بدلاً عنه البدع والخرافات والخزعبلات، وتمسّكت بالدفاع واحتضان بؤر المذاهب الفكرية المنحرفة، التي تؤمّن مصالحها الفاسدة، والتي كانت تصب في غايتها للسيطرة على المُلك وكرسي الحكم في البلاد الإسلامية، والتي كانت توازي الإمبراطوريات النادرة، وتحط من قيمة الإنسان والإنسانية.

فالعلوم التي كان يختص بها العرب المسلمون آنذاك تقتصر على العلوم الدينية، والتي تشمل العلوم القرآنية (تفسير، حفظ، ترتيل) والسنَّة النبوية (حفظ وإسناد)، والأدب والشعر، فلما اتصلت الأمة الإسلامية بالواقع اليوناني عبر فتح باب الترجمة وانتقال العلوم العقلية إلى العرب بما

تحمله من متشابه[1] أدّى إلى التخبط في الأخذ من هذه الثقافات المتجذرة بخلاف المجتمع العربي في ذلك الوقت، فظهرت التيارات المخالفة والموافقة والمؤالفة.

وكذلك أدّى بمن انزوى عن الواقع العقلي بمنهجه السقيم والمبتذل أن يتخذ الاجراءات المثالية للحفاظ على هيمنة اتجاهه.

يقول **دي بور**: (تلك البواكير التي نشأت من مؤثرات نصرانية مصطبغة بالفلسفة اليونانية في دورها الشرقي ومن مؤثرات فارسية)[2].

فقد ظهرت آثار هذه التخبّط واستحكم حتى عند كبار الفلاسفة، فنجد على سبيل المثال **أبو نصر الفارابي**، في كتابه «الجمع بين رأي الحكيمين

---

(1) حيث إنَّها جمعت الصافي الذي أتى به أرسطو، مع المشوب وهو الذي أحدثه أفلوطين في القرن الثالث الميلادي، عبر إدخال المعتقدات الدينية على مختلف مشاربها مع الفكر الغنوصي (المراد به الفكر العرفاني والذي يعتمد على المنهج العرفاني ونقاء النفس وصفاءها كأداة في معرفة الواقع، ويتخذ من بعض المقدمات الأخلاقية أصولاً لكي يصل إلى النتيجة) في العلوم العقلية، والذي على تعبير بعضٍ ما فعله أفلوطين (القرن الثالث الميلادي) نظير ما ابتدعه صدر المتألهين (قدس سره) من التزاوج بين الدين والعقل والعرفان، فأدخل الأول العرفان والديانات الموجودة في ذلك الوقت على ما استلمه صالحاص نقياص من حكماء اليونان، وكذلك صدر المتألهين فإنَّه استخدم أجنحة ثلاثة: العقل، والدين، والعرفان.

قال محمد علي أبو ريان: (يبدو أن أفلوطين ـ وهو يعبر عن ذروة الثقافة الوثنية ـ أراد أن يعارض المسيحية القائلة بالأقانيم الثلاثة، فوضع مذهباً وثنياً يتضمن أقانيم ثلاثة هي: الواحد، والعقل، والنفس الكلية. ولكن الأفلاطونية المحدثة ما لبثت أن دخلت في غمار الثقافة المسيحية وتأثر العالم المسيحي بآراء أفلوطين بعد أن ترجمت كتبه إلى اللاتينية في القرن الرابع الميلادي، وظهر أثر هذه الآراء واضحاً في كتابات القديس أوغسطين). تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ص70.

(2) تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور، ترجمة محمد عبد الهادي، الطبعة الثالثة، طبع ونشر دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان.ص20.

أفلاطون وأرسطو» يورد آراء لأرسطو تعارض آراء أخرى له، ثمَّ يحاول التوفيق بينهما، بينما هو كان يقارن بين نصوص تلقاها من كتاب الحروف «الميتافيزيقا» الذي ينسب إلى أرسطو بالحقيقة ونصوص أخرى تلقاها من كتاب «أثولوجيا» والذي ينسب إلى أرسطو، ولكن النسبة غير صحيحة[1]، ولم تنطلي هذه المسألة على ابن سينا؛ حيث شكّك في تلك النسبة فأشار في رسالته إلى الكيا أبو جعفر إلى وجود طعن في «الأثولوجيا» من حيث نسبتها إلى أرسطو، حيث قال: «على ما في «أثولوجيا» من المطعن»[2].

ففي هذا الجو المليء بالمتناقضات والتي لم ينجُ منها حتى كبار الفلاسفة، كيف يستطع العقل الإسلامي البكر أن يبرز وجهه الخلّاق في ميدان الفلسفة نقياً مخلصاً.

ونتيجة لهذا ظهر علم الكلام وأصحاب الرأي والاجتهاد وعلم التصوف الإسلامي وعلم الفلسفة، فولدت في مخاض تلك الأجواء المتنازعة والطوائف المتناثرة هذه العلوم في تلك الحقبة التاريخية، «**وكان لا بدَّ من أن تفضي المواجهة بين الفلسفة والدين؛ إمَّا إلى تعارض، أو تزواج، أو تأثير، أو تأثر على أيِّ صورةٍ من صور انتشار التيارات الثقافية**»[3].

فهذا السبب الرئيس، ويمكننا أيضاً أن نستنتج أسباباً أخرى عامة، منها:

1. التخوف من أن يتبع المسلمون علماء اليونان ويتركون علماءهم،

---

(1) انظر: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، مصدر سابق، ص32.

(2) المباحثات، أبو علي سينا الشيخ الرئيس، الناشر: منشورات بيدار، الطبعة الأولى سنة 1413هـ، قم، إيران، ص375 عند فقرة 1161.

(3) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، مصدر سابق ص12.

فيبقى دين الله مهجوراً بدون ولاء، يقول أبو ريان: «وكان من المستحيل أيضاً أن يقبل هؤلاء طواعية موقفاً يزدوج فيه الولاء للدين والفلسفة، بحيث يسيران معاً في حياد وتوازٍ دون أدنى محالة للالتقاء أو التفاعل»[1].

2. اعتقاد من أنَّ احترام العقل فيه تقليل من شأن المعصوم، فكلما أطلق العقل الحجة يحصره بالمعصوم، فكأنَّه غفل عن أنَّ الله هو الذي جعله حجة باطنة بالاضافة الى المعصوم الحجة الظاهرة وتبعه المعصوم في التأكيد على ذلك، كما أنَّه خفي عليه بأنَّ الذي حكم بوجود إله، وبعصمة النبي أو الإمام و و و ... هو العقل فإن لم يكن حجة فكيف يعتبر كلامه، وكيف بمن لا يملك الحجة والاعتبار أن يعطيها، وفاقد الشيء لا يعطيه.

3. كون العلوم العقلية جاءتنا من اليونانيين والذين لا يمتون للواقع الديني بصلة، بل هم للكفر أقرب؛ فكيف نأخذ منهم هذه العلوم مع أنَّهم رجس من عمل الشيطان واجبي الاجتناب[2].

4. الخشية من التعقل لأسباب عنصرية؛ لأنَّ أصحاب الديانات والعقائد المنحرفة الفاسدة يحاولون أن يغطوا إعلامياً على عقائدهم الفاسدة ببعض الأمور المشهورة والعرفية والتي ليس لها أساس في الواقع؛ وبالتالي دراسة العلوم العقلية بمثابة إعلان

---

(1) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، مصدر سابق. ص12.

(2) وهناك كثير من الشواهد التاريخية على ذلك، ينقل التاريخ بأنَّ أحمد بن حنبل هجر الحارثَ بن أسد المحاسبي، وحرّض العامة عليه؛ لأنَّه كان يستعمل العقل وحديثه في بعض الأمور. انظر: العقل وفهم القرآن، مصدر سابق، ص129، وانظر: ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد ص194-192.

ثورة ضدّ معتقاداتهم الفاسدة، ومثال ذلك نجده واضحاً وجلياً في الغرب حيث حاولت الكنيسة سابقاً السيطرة على الآخرين عن طريق إغماضهم وتلبيس الباطل؛ ليحافظوا على موروثهم التراثي الببغائي بدون وعي وتفكر وتدبّر[1].

5. عدّ هذه العلوم هجينة وليست إسلامية[2]، فإنَّ تكاثر وتوالد هذه العلوم إنَّما كان بفضل مساهمة شعوب غير الناطقة بالعربية من فرس ومصريين وأتراك، وأيضاً مجهودات أفراد من المسيحيين واليهود ممَّن أظلتهم الحضارة الإسلامية، فهذه العلوم لا تمت للإسلام بصلة، يقول ابن عبد ربّه المتوفّى سنة 328هـ : «لم تزل الأمم كلها من الأعاجم في كلِّ شقٍ من الأرض لها ملوك تحميها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها... ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصيها، ويقمع ظالمها وينهي سفيهها، ولا كان لهم قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلَّا

(1) فقد حكمت المحكمة على غاليلو بالسجن؛ لأنَّه أثبت كروية الكرة الأرضية في عام 1623م، واتهم بالهرطقة؛ لأنَّه خالف المعتقدات الدينية آنذاك، وبحسب ما يذكر المؤرِّخ جاكوب برونسكي: «كان من تأثير محاكمة غاليليو انتقال الثورة العلمية من الآن فصاعداً إلى أوروبا الشمالية»، ولكن بعد ذلك بثلاثة قرون ونصف وفي 31 أكتوبر 1992 قدمت الهيئة العلمية بتقريرها إلى البابا يوحنا بولس الثاني، الذي قام على أساسه بإلقاء خطبة، وفيها يقدم اعتذار من الفاتيكان على ما جري لغاليليو غاليلي أثناء محاكمته أمام الفاتيكان عام 1623.

وكذلك في واقعنا المعاصر، صارت الاختلافات في العقائد من الأسباب المهمة التي أقصت المذهب العقلي عن الواقع الديني وخصوصاً غير الشيعة، لما كان الأس العقائدي يحوي على مقدمات عقلية تحتاج إلى النظر بها، فحرّموا دراسة العلوم العقلية؛ لئلا يسلّمون بما عليه المذهب الحق، وفق الأدلة العقلية.

(2) ينقل ابن خلدون في مقدمته الفصل 36: «في أنَّ حملة العلم أكثرهم عجم».

ما كان من الشعر، وقد شاركتها فيه العجم»[1].

6. التحجر الموجود عند بعض علماء الدين، الذي أخرج الدين عن دعواته الصارخة بالتفكّر والتدبّر والفرار من قفص التقليد الأعمى، أدّى به أن تشن حملات قوية على الفلاسفة والعلوم العقلية؛ لكيلا ينصرف أتباعه عن عقيدتهم التي أخذوها منه من دون فكر وتأمّل أو عن طريق المشهورات والمغالطات، فيُبقي أنصاره تحت التعتيم الإعلامي حتى لا يتعرفوا على الطريق الحق[2].

7. أخذ ظواهر النصوص كأساس في الاعتقادات والمخالف لها خارج عن الملة والدين، ونتيجة لبعض تفسيرات الفلاسفة والتي لا تتوافق مع ظاهر الدين يجعل الفيلسوف في عرضة الهجوم والتسقيط؛ ممَّا يحيد بالأكثر أن يتقي في الموارد الحقة مع ما له من براهين في إثبات مدعاه. وكذا وجود معاني فلسفية خلاف ظواهر الكتاب والسنَّة يعدها السامع لأول وهلة من الشرك، أدّى بالفقهاء والعلماء أن يبدوا موقفهم الشديد والحاسم ضدها تبرءاً منهم ومن عملهم؛ ممَّا أبعد طلاب العلم خوفاً من وقوعهم في

---

(1) العقد الفريد، ابن عبد ربّه، ج2 ص86.

(2) قال ابن تيميَّة: (شرك الفلاسفة أشنع من شرك أهل الجاهلية)؛ لأنَّهم أثبتوا بعض الاعتقادات بالأدلة البرهانية، فلكونها لا تتماشى مع ذوقه الخاص اتهمهم بالكفر والزندقة، وهو اتهام يخشاه المتديّن فيضطر إلى التسليم بأقواله ولو ظاهراً.

انظر: كتاب الردِّ على المنطقيين، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيميَّة الحرّاني، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى سنة 2003م 1424هـ منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنَّة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص86.

الضلالة التي ابتدعها هؤلاء المتفلسفة، أو تحت ألسنة التكفير والتسقيط.

8. كثرة ما دخل في الدين من الإسرائيليات والموضوعات، والتي تؤكد على الاستحسانات والقياسات الفقهية والرأي[1]؛ وبالتالي هجران تدريس العلوم العقلية[2].

9. ظهور المذاهب العرفانية والذوقية والتي تنال اهتمام أكثر من العلوم العقلية على مستوى العوام، ففيها المصطلحات الرنانة، والتي تصك المسامع حينما تقرأ لأول مرّة، وتجعل الإنسان يعيش في ربقة الأمل والحلم.

10. اعتقاد البعض - أمثال ابن تيميَّة وابن خلدون - بأنَّ العقل معزول عن تقدير العقائد؛ إذ سبيلها الوحيد هو الوحي[3]، فحينما لا يتدخل العقل في هذه الأمور يصبح من السهل على الآخرين

---

(1) وقد عرّف ابن القيّم الرأي، قال: «إنَّه ما يراه القلب بعد فكر وتأمّل وطلب لمعرفة وجه الصواب» ابن قيم الجوزية، إعلام الموقّعين عن ربِّ العالمين، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، 1998م، ج1، ص66.

(2) فقد ذهب المستشرق **فون كريمر** إلى أنَّ نظرية القياس الفقهية التي طبّقها فقهاء المسلمين كابن حنبل والشافعي وابن تيميَّة وغيرهم، إنَّما ترجع إلى أصل يهودي، وإنَّ لفظ القياس موجود في اللغة العبرية. انظر: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، محمد علي أبو ريان، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. ص27.

(3) مقدمة ابن خلدون، فصل علم الكلام، ولابن تيميَّة كلام كثير يحارب العقل فيه والعقلاء وينقض العلوم الفكرية بنفس الآلية التي يحاربها، ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتبه، انظر: كتاب الردِّ على المنطقيين، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميَّة الحرّاني، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى سنة 2003م 1424هـ منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنَّة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الدخول لها؛ وبالتالي تبيينها بما تتلائم مع أهدافهم.

11. ظهور بعض المدارس والاتجاهات والتيارات الجديدة، والتي لبست اللباس العقلي الإسلامي، وتكلفت ما ليس لها، وأقحمت نفسها في المطالب العقلية، فطرحت الإشكالات العقلية ولم تجب عنها، وإن أجابت لم تحسن الجواب عليها، فجعلت العلوم العقلية في موقف لا تحسد عليه وكثر أعداؤها.

12. التقليد الأعمى، وهذا السبب مطرداً في كل الويلات التي مني بها العقل البشري.

الأسباب السياسيّة

القسم الأخر من الأسباب التي أدّت إلى انحسار المنهج العقلي هو العامل السياسي، والذي له الدور الكبير في محاربة التفكير والتفكر، وهذا واضح المعالم منذ العهد الأول للإسلام، والتعتيم الإعلامي إلى يومنا الحالي.

إنَّ اعتماد الحكام على الأدوات المناسبة لأهدافهم، بينما العقل موجب لرفع الموانع؛ وبالتالي انكشاف الخديعة التي صنعها هؤلاء، فهم يحرصون على أن تبقى الشعوب في هذا التعتيم وغيبوبة العقل؛ ليحافظوا على ما هم عليه من الشهرة والأموال و و، فجنّدوا أنصارهم لإيجاد وابتداع تيارات ومناهج تعارض العقل ظاهراً، وسخّروا وسائل الإعلام لذلك أيضاً ، والشاهد على ذلك في تاريخ السفسطة فإنّها تعدّ أول ظاهرة بدت لحسر العقول وأدّت إلى ظهور اتجاهات السفسطائية، والتي تحاول إقناع الناس بأنَّهم يعيشون وهم أو حلم أو أنحصار العلم فيّ فلا أحد موجود سواي في العالم، أو هناك واقع وأنا لا أستطيع التعرّف عليه، فهكذا ثقافة تحول بين المطالبة بالعدل

وقمع الظلم، فلا يأتي شخص ويحاول الانقلاب والثورة ضدَّ الحكومة؛ لأنَّه قد غُذّي المجتمع على مسألة عدم الحكومة، بل هذا ما يترائى لي، أو أنَّ هذه الحكومة التي باعتقادي ظالمة هي ليست ظالمة، ولكن نتيجة لأخطاء الحواس والشبهات المتعلقة في الذهن لا أستطيع التمييز بين الظالم وغيره، إلى غير ذلك من المهاترات والخزعبلات التي وضعها وعاظ السلاطين من أجل الحفاظ على ملكهم.

فهذا يعدّ السبب العمدة والرئيس. أمَّا الأسباب الأخرى الجزئية، فيمكن استقراء بعضها:

1. استغلال الجهل الفكري لإشعال الفتنة بين الشعوب، كلٌّ بحسب ما هو مبتلى به، فبين المسلمين سنَّة شيعة صوفية وهابية... وبين الأديان المسلمين والمسيحيين واليهود، وبين الآيديولوجيات العلمانيين والرأسماليين و و، فإنَّه يؤدي للاحتياج إلى الأسلحة، والاستشارات العسكرية وهذه ما تؤمّنه الدول المستعمرة ثقافياً مقابل مال، فبالإضافة إلى استنزاف الأنفس والأموال نشر الفكر المشين.

2. استغلال الوضع الاقتصادي والمستوى الثقافي لبعض الدول؛ فكلما ساد التخلف والجهل كانت الواردات من الخيرات والموارد البشرية في خدمة الدول الكبرى، فرجوعهم إلى العقل خلاف أهدافهم.

3. التبعية المطلقة للغرب في المنهجية؛ فإنَّ الاعتماد على المناهج التي وضعت متناسبة مع الوضع الغربي من حيث المبادئ والثقافات ومن جهة الأهداف والغايات وسيطرة الطابع المادي التجريبي

عليها، لا تتلائم مع العلوم العقلية من حيث المنهج والأدوات المستعملة، بالإضافة إلى أنَّ البيئة التي هيئت لها هذه المناهج تختلف عن البيئة الإسلامية والعربية. وحينما يريدون نشر هذه العلوم ومنهجتها فتنقل على المنهج المتبع عندهم، فلا تسلم من الإشكالات؛ لذا نراهم يضنون بهذه العلوم على الغير مخافة إيراد الإشكالات عليها.

4. الحرب الإعلامية التي تُشن على هذه العلوم، لما فيها من خلق جوٍّ مناهض لسياستها المعتمدة، ـ والتي تتلون بألوان مختلفة؛ كأصحاب الديانات الفاسدة والسلاطين المنقوشين على كراسي عروشهم، وبعض الأحزاب والتيارات ـ وأكثر الناس عبيد الإعلام من حيث لا يشعرون مع وجود طابور خامس من المثقّفين العرب والمسلمين، المنهزمين فكرياً ونفسياً أمام الفكر الغربي المادي، الحاملين لثقافته والمروّجين لها من على المنابر الإعلامية المختلفة، فأصبحت هذه العلوم غريبة لا تدرّس إلّا كأكل الميتة، وإذا درّست لم تراعَ فيها الجانب الطبيعي ـ لكي يأنس الطالب تدريجاً بالعلوم العقلية وجعل أحدها مكمّل للآخر ـ بل على نحو انتروبي (غير منظّم).

5. شيوع المذهب الحسي المادي في الغرب بعد هزيمته النكراء للكنيسة المتديّنة، وتحقيقه لإنجازات علمية باهرة على المستويين الصناعي والتقني، وطغيانه السياسي والاقتصادي على الأمة الإسلامية؛ وبالتالي هيمنة ثقافته الحسية ونفوذها في جميع طبقات المجتمعات الإسلامية.

6. وقوع المفكّرين ضحية فتك أصحاب السلطة؛ لئلا يفضحوا أمام الناس، وليس هذا مقتصر على الوقت الحالي، بل حتى في مراحل الإسلام الأولى ظهرت آثارها[1]. ينقل لنا التاريخ أنَّ **السهروردي** المفكّر المعروف قد قتل على يد **صلاح الدين الأيوبي** لا لشيء سوى أنَّه كان مفكّراً وحاول أن يبيّن الأفكار الجديدة للناس، فيقع شهيداً بسبب حماقة الساسة آنذاك[2]. وكذلك في يومنا الحاضر، فالكثير من المفكّرين وقعوا ضحايا للمترأسين لأسَباب سياسية.

7. تجذر سياسة العقل الجمعي وسيطرتها على تفكير أكثر الناس، فصار طابع الخوف من الجديد والتجديد على المستوى الفكري والعقائدي، مخافة الوقوع تحت يد بعض التيارات المنحرفة، والتي تتخذ من العقل[3] سبيلًا للوصول إلى أذهان السذج والبسطاء.

8. استحكام سياسة تغييب العقل ، فقد سار الغرب في هذا الاتجاه مسيرة أخرى وفقاً لمناهجهم المعرفية المادية، فجعلوا العقل (الذهن) عبارة عن نفس الدماغ وما يحويه من أعصاب

(1) على سبيل المثال نذكر واقعة بسيطة: حاول شخص يدعى صبيغ أن يثير بعض المسائل الدينية معتمداً في ذلك على النقاش العقلي ضربه الخليفة آنذاك حتى سال الدم من رأسه. انظر: العقل وفهم القرآن، الحارث بن أسد المحاسبي، قدّم له وحقّق نصوصه حسين القوتلي، دار الكندي ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1402هـ 1982م، ص130.

(2) انظر: الموسوعة الفلسفية، عبد المنعم الحنفي، دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ص433.

(3) إنَّ العقل المراد به هنا بالاشتراك اللفظي، وهذه واحدة من الفوائد المهمة المترتبة على تعريف العقل والذي أشرنا إليه في أول البحث؛ لكيلا يقع الناس تحت تأثير كلِّ مَن يدّعي العقل.

(الهوهوية) أو نفس السلوك الناتج منه، أو أنَّه لا يوجد فرق بينه وبين الذهن بتاتاً حتى مفهوماً، إلى غير ذلك من النظريات، وحمّلوا هذه النظريات وصدّروها إلى العالم الشرقي البسيط وأشغلوه بتفاهاتهم وحصروا الفلسفة والفلاسفة في هذه المسائل وغيرها بصورة عمدية وتركوا ما هو الأهم، فذهبوا بها عريضة وبعيداً عن الجانب الواقعي؛ ليحكموا بضرس قاطع على موت الجانب المجرَّد والغيبي، وتبقى نظريتهم المادية سالمة من الخدش[1].

9. سياسة التبعيد والتزهيد في العلوم العقلية الناتجة من نشرها لانموذجية الطرح العقلي ومثاليته البعيدة عن الواقع، والذي بدوره يؤدي إلى جفاء هذا المنهج، فصارت تلك السياسة عنواناً للأكثرية غير المشجعة والقابلة لمثل هذا الطرح، وإن بُحثت فبالاشتراك اللفظي فيما تحتفظ به أذهانهم وبقيت صوره في مخيّلاتهم من غير أن يكون له أدنى ربط بالعقل الخاص[2].

(1) انظر: العقل منبع الحكمة، عبد العزيز جادو، الطبعة الأولى 1978م، طباعة ونشر دار الفكر العربي، ص10 وما قبلها.

(2) وهذه مغالطة واضحة ويمكن الإجابة عنها بـ:

أولاً: حينما نتطلع إلى العلوم نرى القوم الذين يمتازون بتحصيل هذه العلوم أكثر الناس ولوجاً في العلوم المجرَّدة عن المادة، فترى لهم نوع من العزلة فلا يأنسون بالجمع، فهذه الأكثرية التي عرضها المستشكل ظاهرية ومشهورية، ونحن نؤيِّد هذه المسألة لما تقدّم، وذكرنا أنَّ هناك استراتيجية مرسومة ونفذت لأجل إقناع الأكثر بهذه المسألة نجحوا فيه واقعاً. وكما هو واضح للعقلاء أنَّ الأكثرية لا تعد ميزاناً ولا دليلاً، بل على العكس تعتبر الأكثرية مذمومة في كثير من الأحيان، فإذاً لا تعتبر مدحاً ولا ذماً؛ لأنَّها قد تدخل في البابين معاً.

ثانياً: إنَّ كثيراً من الأمور الفطرية والتي لا تقبلها الفطرة السليمة غيّرتها وشوّهتها وشنّعتها بعض العادات والتقاليد، وهذا ليس بغريب، فكثير من الأمور التي جبل الناس عليها غرّبتها ←

10. سياسة حوسبة العقل، تبديل العقل بالحاسوب، وما يترتب عليها من مشاكل معرفية، وهذا ما نجد في بعض المؤسسات حيث أظهرت استراتيجية جديدة تهدف إلى إبدال الحاسوب مكان العقل والعقل مكان الحاسوب، مع إهمال الفرق الفارق بينهما، قال إدوار دي بونو: «إنَّ الحاسوب هو آلة في منتهى التعقيد، ولكن عملها في غاية البساطة، وأمَّا العقل البشري فهو آلة في منتهى البساطة من حيث التكوين، وعلى غاية التعقيد من حيث العمل»[1].

11. سياسة التهميش للآخر؛ وبالتالي المحورية لي. وهذا ما نراه جلياً عند بعض من يدّعي العلم يشن هجوماً واسعاً على العلوم المخالفة له ليثبت علومه، فيصف العلوم العقلية بأوصاف شنيعة؛ ليجعل البقية تزدريه، ويحقق بذلك هدفه من جعل المحورية له والهامشية للقول الآخر، من غير دليل ولا بيان واضح[2].

← عليه بعض الأفعال لمصالح شخصية، فنرى أنَّ بعضاً قد يقلبون الموازين في كثير من المسائل، فتصبح معكوسة بدافع الإعلام والتخريب الفكري.

(1) إدارة العقل البشري الجديد، بشير شريف البرغوثي، سنة الطبع: 2000م، دار زهران، عمّان، الأردن، ص 14.

(2) وهذا ما نراه عند نيتشه العالم الألماني الذي ينكر العقل ويهاجمه هجوماً شرساً، حيث يقول: إنَّ المنطق هو ابن العقل البكر وهمٌ مقصود، فمبادئ الفكر (الشيء، الجوهر، الذات، الموضوع، العلية، الغائية...) ليست غير أوهام ضرورية للحياة نافعة ومفيدة. وإنَّ الذاتية (الهوية) شرط في التفكير لكنها ليست شرطاً في الوجود؛ لأنَّ الوجود تغيّر مستمر وصيرورة دائمة. وقانون التناقض يقوم على قانون الذاتية، إنَّهما مظهران لقانون واحد: أحدهما إيجابي (الهوية)، والآخر سلبي (الهوية). ←

الأسباب الشخصية

إنَّ مرد هذه الأسباب تكمن في ردود أفعال خاصة من شرذمة لا تنتمي إلى دين معيّن، صيّرتهم للاعتقاد بأنَّ العلوم العقلية ومن ينتهجها توهمات وقع فيها الفلاسفة وأسلكتهم طريق مستودع الشرك والضلالة، وهذا إمَّا من عدم فهم كلام الفلاسفة، أو من التخبّط الشخصي لبعض الفلاسفة في السلوك العملي بخلاف ما يعتقده المتديّنون[1]. فأثار هذه الفتنة البعض ونحى أسلوب التجرأ والاستهزاء وغدا طابعاً عاماً عند أصحاب

← وكذلك **يقول**: إنَّ العقل في حياة الإنسان لا حاجة إليه، وهو خطر وغير ممكن، فلا حاجة إلى العقل في حياة الإنسان «لأنَّ عدم معقولية شيء من الأشياء ليست حجة ضدَّ وجوده، بل بالأحرى إنَّها شرط لوجود هذا الشيء»؛ لأنَّ الوجود يتناقض مع العقل وتنافى مع المعرفة العقلية كما أنَّ العقل خطر؛ لأنَّه يدّعي معرفة كلِّ شيءٍ. ولو كان الأمر كذلك، إذاً لما استطاع الناس أن يحيوا طويلاً.

يقول: «لو كانت الإنسانية قد سارت حقاً على مقتضى العقل، أعني على أساس «أفكارها» و«علمها»، إذاً لكان قد قضي عليها منذ زمن طويل»؛ وذلك أنَّها في الواقع لم تعلم عن طريق العقل إلَّا الشيء الضئيل جدّاً، ممَّا لا يكفي مطلقاً للوفاء بمقتضيات الحياة كلها.

والعقل هو أيضاً غير ممكن؛ لأنَّه ليس هناك عقل واحد، وإنَّما هناك عقول كثيرة تتمايز، ومن هنا يختلف الرأي بين العقول المختلفة بإزاء الأمر الواحد. فلا مجال للتحدق عن العقل بصيغة الإطلاق والعموم.

وكذلك ينكر الوهم الذي انساق في تياره الفلاسفة، حين زعموا وجود عقل كلي يحكم الكون ويسوده فتصبح الظواهر كلها والأحداث معقولة. «إنَّ العقل الوحيد الذي نعرفه هو هذا العقل الضئيل الموجود في الإنسان».

ولهذه الأسباب حمل نيتشه على الفلسفة كلها، أو بعبارةٍ أدق: على كلِّ الفلاسفة الذين قالوا بالوجود الثابت، بدلاً من القول بالتغيّر والصيرورة. انظر: موسوعة الفلسفة، عبد الرحمان بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 1984، بيروت لبنان، ج2 ص513.

(1) انظر: تهافت الفلاسفة، محمد بن محمد الغزالي، تقديم أحمد شمس الدين، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: 2008م، دار الكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ص20.

النفوس الضعيفة، وبعضهم انبرى لتأليف الكتب في إثبات الزيغ والبدع لهذه الطائفة كالغزالي، وانبرى آخرون لكشف بدعهم كالسهروردي[1].

والأسباب الشخصية كثيرة، نذكر منها:

1. مخالفة العلوم العقلية للعرف والذي يأنس به الناس، وجعل الفهم الشخصي هو الأساس لتفسيرها، وعدَّ شبهة التعارض بين الدين والعقل أهم دليل على ذلك[2].

2. جعل الاختلاف في الآيديولوجيات العقائدية أساساً لتكفير الطرف الآخر[3]؛ وبالتالي مراعاة لعدم الحصول على كلام نابٍ وخروج عن الملة، جعل التفكير طريقاً للتكفير، فابتعد الكثير عن الأول مخافة الثاني.

3. الضبابية في تعيين الغايةِ لطالبي العلم، فالسعي وراء المستقبل الذي يوفر لي المطعم والمشرب والملبس على مستوى بسيط، وترك

---

(1) لذا ينقل الأخير في سبب تأليفه كتابه: «هناك طائفة اعتقدت في نفسها التميّز على غيرها فرفضت العبادات، واستحقرت شعائر الدين واستهانت بالآخرة وانخدعت بفلاسفة الإغريق كسقراط وأفلاطون وأرسطو، وبخاصة في استدلالاتهم وبراهينهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية، فضلّوا وزلّوا وبخاصة في القضايا الإلهية، ومن ثَمَّ شعر الغزالي بغيرة تدفعه إلى المنافحة عن الإسلام وعلومه وقضاياه ضدَّ هؤلاء ومن نهج نهجهم، فألَّف كتابه هذا وبين فيه تهافتهم وضعف عقولهم». كشف الفضائح اليونانية ورشف النصائح الإيمانية، لشهاب الدين عمر بن محمد السهروردي، تحقيق وتعليق: عائشة يوسف المناعي، الطبعة الأولى 1420هـ 1999م، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ص25.

(2) انظر: تهافت الفلاسفة، محمد بن محمد الغزالي، ص24.

(3) انظر: تهافت الفلاسفة، محمد بن محمد الغزالي، ص32 وما بعدها من عدم ارتضائه لأقوال الفلاسفة فشنَّ هجمة عليهم.

العلوم التي ليس لها فائدة مادية مرجوة مع ما فيها من تعب ومؤونة فكرية، فالتجارة مع ما فيها من السفر ومشاهدة البلدان وما فيها من أرباح مادية لا تطلب إلَّا الجهد اليسير، بخلاف من يدرس الفلسفة والعلوم ويتعب نفسه بالجلوس متفكراً بينما لا يجد ما يسدّ رمقه ويبقى عالة على المجتمع، ولندرة دراستها أصبح أكثر الناس في جهل مطبق عن أهميتها في تعيين مصير الإنسان والناس أعداء ما جهلوا. وهذا السبب عام لا يختص بالعلوم العقلية.

4. صعوبة المناهج العقلية بحدِّ ذاتها، فليس لكلِّ أحدٍ قابلية الولوج والخوض بها. بل حتى من له خبرة فيها لا يمكنه فهم جميع مطالبها إلَّا بصعوبة[1].

5. عدم توفر الشروط اللازمة لدراسة هكذا علوم، إضافةً إلى ندرة مصادرها الأصلية وإن وجدت توجد بلغة غير مفهومة[2]، كما

---

(1) لذا ينقل ابن سينا: «وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة، فما كنت أفهم ما فيه، والتبس عليَّ غرض واضعه، حتى أعدت قراءته أربعين مرّة وصار لي محفوظاً. وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به، وآيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين، وبيد دلال مجلّد ينادي عليه. فعرضه عليَّ فرددته ردَّ متبرم، معتقداً أنَّ لا فائدة من هذا العلم. فقال لي: اشتر مني هذا، فإنَّه رخيص أبيعكه بثلاث دراهم، وصاحبه محتاج إلى ثمنه، واشتريته فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، ورجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته. فانفتح عليَّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنَّه كان لي محفوظاً على ظهر القلب. وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يومه بشيء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى» انظر: مجربات ابن سينا الروحانية، الشيخ الرئيس ابن سينا، نشر مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1425 هـ ق، الطبعة: الأولى.ص10-9.

(2) إنَّ الإبهام في العلوم العقلية مقصود من العلماء، للحدِّ دون استخدامه من ذوي النفوس

ولكونها علوم مجرَّدة لا يأنس بها الناس، فيفرّ عنها الإنسان العادي أو الذي لا يمتلك حضاً من الذكاء ـ وإن كان محبّاً لها ـ فضلاً عن المنكر لها أساساً.

6. الحفاظ على المنصب والوجاهة الشخصية بتشويه المصدر العقلي. واستخدمه بعض أصحاب الديانات الفاسدة والأحزاب المنحرفة، كوسيلة للحفاظ على مواقعهم وما تدره عليهم من أموال وجاه ومقبولية عند العوام والجهّال[1].

الضعيفة لمآربهم الشخصية.

(1) ونذكر مثالين:

الأول: ثورة مارتن على الكنيسة: فنجد مثلاً واحدة من أسباب ثورة مارتن لوثر (1546-1483 الذي كان مصلح ديني ألماني ومؤسس البروتستانتية) سنة 1524-1517 هي: أصدار البابا صكوكاً أسماها بصكوكُ الغفران لغرض تكميل بناء كنيسة بطرس، فأعلن أنَّ هذه الصكوك تغفر للأشخاص الذين يحوونها على حسب السعر، فهناك صك يغفر 100 يومٍ، وهناك أغلى منه يغفر لـ 400 يومٍ، فثار ضدَّه مارتن لوثر إلى أن انتهى الأمر بحبسه، ولم يكفهم إلّا أن حرقوه. (انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة بيروت لبنان، طبعة ثالثة مفهرسة، سنة الطبع 2006م. ص587).

وتفصيلها: «بدأ (مارتن لوثر) نشاطَه في مقاومةِ بابا (روما) (لويس العاشر) في الفترة (1517 ـ 1524)، عندما أصدرَ هذا البابا صكوكَ الغفران، وفوّضَ (يوحنّا تنزل) بتحصيلِ ثمنِ هذه الصكوكِ، لاحتياجِه إلى المالِ ليُكملَ كنيسةَ (القديسِ بطرس) وبعضَ الغاياتِ الأخرى، فكان (يوحنّا تنزل) يمرُّ في الشوارعِ والطرقاتِ حاملاً منشورَ البابا، داعياً الجميعَ إلى اغتنامِ هذه الفرصةِ بشراءِ صكوكِ غفرانِ الخطايا، لغفرانِ الخطايا الماضيةِ والمستقبليةِ أيضاً!

وكانت هذه الصكوكُ ذاتَ فئاتٍ مختلفةٍ لغفرانِ مُددٍ مُختلفة (100 يومٍ ـ 400 يومٍ)، وكلُّ مدّةٍ لها ثمنٌ مُختلف!!. فكان الشعبُ المسكينُ الذي استولتْ على عقلِه تلك الضلالاتُ الباطلةُ يُسرعُ إلى اختطافِ هذه الغفراناتِ من يدِ (تنزل) ودفعِ النقودِ اللازمة.

فابتدأ (لوثر) يُقاومُ هذا العملَ، ويُندّدُ بفسادِه تنديداً قاسياً، حتى بلغَ ذلك مسامعَ البابا، فدعاه

7. التعصب في الرأي الناتج من الجهل المطبق، فيدافع عن وجهة نظره بدون دليل ولا برهان، ويعتد برأيه رغم وجود أهل الخبرة والمعنيين[1].

8. ضعف دراسة العلوم العقلية وإن درِّست مع وجود العداء النفسي من قبل أساتذتها، يؤثّر ذلك على نفسية المتلقي، بالإضافة إلى عدم الأرضية الموفقة العلمية للابتداء، فكانت البداية عشقية

إلى (روما)، فلم يُلَبِّ الدعوة، بل أجابَ البابا بتأليفِ كتابينِ، سمّى الكتابَ الأوّلَ «سبي الكنيسة البابليّ» «وسمّى الكتابَ الثاني» «كسر ختم المسيح الدجّال»، فاحتدمَ البابا غيظاً، وبادرَ بحرمانِه ← من غفرانِ الكنيسةِ سنةَ 1526. غيرَ أنَّ (لوثر) لم يعبأ بالحرمِ، بل أحرقَ جهاراً على رؤوسِ الملأ، جميعَ المنشوراتِ البابويةِ الخاصةِ بذلك، وسْطَ تهليلِ أتباعِه واستحسانِهم».

انظر: موسوعة (قصّة الحضارة) للكاتبِ (ول ديورانت) ترجمة د. (عبد الحميد يونس)، المجلّد الثاني عشر (الإصلاح الديني) الصادر ضمنَ مكتبةِ الأسرة. هذا بالإضافةِ إلى بعضِ الوثائقِ الإلكترونيّةِ، وقراءات أخرى حولَ تسلّلِ اليهودِ إلى العقيدةِ المسيحيّة.

الثاني: الثورة الفرنسية على الكنيسة: إنَّ من أهم أسباب الثورة الفرنسية على الكنيسة 1789-1799 في ذلك الوقت كانت الأزمة الاقتصادية التي عانى منها السكان آنذاك، وفي قبال ذلك الأموال والأراضي التي كانت تمتلكها الكنيسة والتي كانت تسيطر عليها، وكذا الصلاحيات والمناصب الحكومية التي كانت تشغلها، ولأجل المحافظة على هذه المناصب والصلاحيات استخدموا طريقة التجهيل والإقصاء المعرفي لكي يبقى الشعب في نومه ويتجسد الدين كأفيون للشعوب ، فلمّا حصل نوع من الوعي ثار الشعب عليهم وهدم مملكتهم وأعلن البعض عن «ديانة العقل» لتكون الخطوة الراديكالية الأخيرة ضدَّ الديانة.

انظر: 94–92, : , , , .

(1) نجد المنافقين في زمن النبي ـ رغم وجود النبي المرتبط بالوحي والغيب ـ يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، بالاعتراض على المعصوم في كلِّ وقتٍ، فصارت الاعتراضات كالبذور وظهرت منها الشبهات كالزروع، فإن كان القوم هكذا في زمن المعصوم، فمن باب أولى في غيره. انظر: الشهرستاني في الملل والنحل.

والنهاية عقلية فصارت ناقصة.

9. عدم مراعاة الترتب الطبيعي في تدريس هكذا علوم، بالإضافة إلى عدم دراسة المناهج المعرفية كمادة أساسية؛ لأنَّها تعد من قواعد العلوم العقلية، وكذا بالنسبة لدراسة المنطق كمادة مهمة.

10. المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يعاني منها الناس، أضافةً إلى ما في زمننا الحالي من شواغل دنيوية أعلامية، كُلُّ هذه الأمور تكون علل معدة لوجود حالة تهويش ذهني، والعلوم العقلية تحتاج إلى صفاء ذهني.

11. نفرة أصحاب القرار في المدارس والجامعات من هذه العلوم للتشويه الإعلامي من تدريسها، وإن درّست فإنَّها تدرس مراعاةً ومجرَّد دراسة تاريخية لأهم النظريات الموجودة والشخصيات المؤثرة، من دون تعميق البحث العلمي للمطالب العقلية.

12. تأثير الحرب الإعلامية وندرة التدريس على كمية ونوعية الأساتذة المتخصصين في تدريس هذه العلوم؛ لذا يتقدم غير المتخصص من باب سدِّ الفراغ بما يحمل من أفكار ومفاهيم خاطئة عن هذا المنهج؛ وبالتالي لا تكون المطالب واضحة، ونفرة الطلاب منها.

13. اعتماد بعض المقدمات على نحو الأصل الموضوعي، فيبني استدلاله وحينما يتبين بطلان المقدمة يقتنص هذه المسألة الأشرار، فيحاولون إبطال هذا العلم ويستدل على خطأ الفلاسفة[1].

---

(1) الطبيعيات القديمة كانت تعتمد على أنَّ الأرض هي مركز العالم، والكواكب والشمس تدور حولها، فلمَّا تبيّن بطلان ذلك الأصل أبطلت جميع النظريات التي كانت قائمة عليه. وكذلك بعض

14. قياس العلوم العقلية على العلوم الرياضية والهندسية، ما تبادر لبعضٍ من أنَّ علم الفلسفة لا يمكن أن يقاس بعلم الهندسة والرياضيات؛ لكونه من قياس المحسوس على المجرَّد وهو باطل، فعلم الفلسفة باطل[1].

الأسباب التي جاءت من نفس الفلاسفة

ولا ننسى وجود بعض الأسباب التي نشأت من بعض الفلاسفة أنفسهم، والتي أودت بحياة جانب مهم من العلوم الفلسفية، نذكر منها:

1. وصف بعض الفلاسفة علماء سائر العلوم بالسطحية وعدم الفهم، ممَّا يثير حفيظتهم ويتولد لديهم ردُّ فعلٍ عكسي ناتجه الدفاع عن أنفسهم، فيصفون الفلاسفة بأوصاف غير واقعية، جعلت طلاب العلم ينفرون من الدراسات العقلية.

الأصول التي تعتمد في هذه العلوم نجد من يستهزأ على هذه الأصول التي أخذت من علماء الطبيعة أو أثبتت في علم الطبيعي، كالأصل القائل: إنَّ العقل الفعّال مبدع لما تحت القمر، حيث يعقّب عليه بقوله: «وهذا أيضاً كفر لم يصل إليه أحد من كفّار أهل الكتاب ومشركي العرب». ←

← انظر: كتاب الردِّ على المنطقيين، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيميَّة الحرّاني، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى سنة 2003م 1424هـ منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنَّة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص88.

(1) فتشنّ الحملات على ابن سينا والفارابي ورميهم بالتقليد لفلسفة أرسطو: «وإنَّما وردوا مشارع البوار واحتقبوا أثقال الأوزار بتسليمهم زمام التقليد إلى الفلاسفة وركونهم إليهم، وكونهم رأوا العلوم الرياضية والهندسية مبرهنة، فقلدوهم في الإلهيات وهي غير مبرهنة». مع أنَّه لم يتأمل إلى أنَّه قد قاس ذلك مثله مثلهم، فهو أولى بالتقليد منهم. انظر: كشف الفضائح اليونانية ورشف النصائح الإيمانية، لشهاب الدين عمر بن محمد السهروردي، تحقيق وتعليق: عائشة يوسف المناعي، الطبعة الأولى 1420هـ 1999م، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ص27.

2. الضبابية في توضيح الأسس والمتبنيات، فيشكّل الأمر عند العوام وينتج تيارًا خطيراً مواجهاً لهذه الأسس ضد العقليات والعلوم العقلية، وكذلك استخدام الاصطلاحات من أهل الفنِّ ـ ومن يدعيه ـ التي ظاهرها الكفر والشرك وبعض المشكلات العقدية والدينية؛ أدّت إلى ظهور اتجاه مضاد للاتجاه العقلي، مع انعدام التمييز بين العالم ونفس العلم.

3. اعتقاد بعض بوجود إشكالات وشبهات في هذا العلم، نتج من اختلاف العلماء فيما بينهم في نفس العلم[1].

4. وجود بعض الاشتراك اللفظي في بعض الاصطلاحات بين الفلسفة وغيره من العلوم يؤدي بغير أهل هذا العلم إلى تبادر خاطئ؛ وبالتالي حكم خاطئ، لذا نجد سيرة الحكماء في بداية كتاباتهم يبيّنون مصطلحاتهم[2].

---

(1) وهذا ما يحصل في سائر العلوم، حينما يأتي العالم الأول بدليل ويأتي الآخر بردٍّ، وهذه المسألة جعلت بعضاً يشنّ هجوماً على هذه العلوم، ينقل الغزالي مقولة أرسطو: «أفلاطن صديق، والحقّ صديق، ولكنَّ الحقّ أصدق منه»، ثمَّ يشنّ هجوماً عليه حيث يقول: «وإنَّما نقلنا هذه الحكاية ليعلم أنَّه لا تثبت ولا اتقان لمذهبهم عندهم، وأنَّهم يحكمون بظن وتخمين، من غير تحقيق ويقين...». انظر: الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق وتقديم: سليمان دنيا، الطبعة الثامنة، نشر دار المعارف، مصر. ص76.

(2) في مقام ردٍّ بعض هذه الشبهات التي تورد في باديء الأمر أنَّ بعضها لا ترد؛ وذلك من عدّة جهات:

الجهة الأولى: نحن إذا توجهنا إلى الإشكالات التي يشكل بها الفلاسفة على الآخرين، نجدها دائماً منصبة على المتكلفين الذين يتدخلون فيما لا يعنيهم، باستخدامهم صناعة ما في غير مكانها الطبيعي، كاستخدام الجدل في الفلسفة، مع العلم أنَّ المطلوب في الفلسفة تحصيل اليقين بالمعنى الأخص، وهذا لا يتحصل بصناعة الجدل كما هو معروف عند أهل العلم.

نتائج إقصاء العقل

ذكرنا في طيّات البحث بعض النتائج التي نتجت عن إقصاء العقل، وتعتبر عواقب مريرة ووخيمة، والسبب وراء تقهقرنا ورجوعنا إلى الوراء، ولسنا بصدد استقراء جميع النتائج والآثار، ولكن نذكر العمدة ونترك الباقي يستخلصه القارئ من الوضع الذي يراه في كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

الأوَّل: سلب حجيّة الدِّين

الجهة الثانية: إنَّ المنبري والمدافع عن كلِّ علمٍ هم أهله، فحينما يتدخل لتغيير العلم بوضع قواعد مزيّفة أو استخدام صناعة في علم هي غريبة عنه وجب على أهل العلم الانبراء والدفاع ←

→ عنه، والفلاسفة حينما يشكلون على الآخرين لكونهم يتدخلون في منهجهم ويحرفونه بإضافات استحسانية تخرجه عن عصمته البرهانية.

الجهة الثالثة: إنَّ الإشكالات التي ترد من الفلاسفة لا ترد على الآخرين بما هم هم، ولكن الإشكال على المنهج المتبع، فالإشكالات التي أشكلها الفلاسفة على الأعم الأغلب ليست جزئية، بل عامة، فليس مرادهم الانتقاص من زيد أو عمرو أو الدين الفلاني أو التيار الكذائي، بل الإشكال بما هو إشكال يرد، وأبسط مثال: إنَّ أرسطو لمَّا وجد إشكالاً على أفلاطون لم تأخذه العواطف والعصبية، بل بحث المسألة بحثاً علمياً دقيقاً فقال: «أفلاطون صديق، والحقّ صديق، ولكنَّ الحقَّ أصدق منه»، فلا قضايا شخصية في المقام، بل علمية.

الجهة الرابعة: لو سلّمنا بإنَّه يوجد بعض الفلاسفة كذلك؛ نقول هذه ليست مختصة بهذا العلم، بل في كلِّ علمٍ هناك من ينتسب له وهو أجنبي عن ذلك العلم أو لا يتقيد به، وواضح أنَّ ما يصدر منه لا يستحق أن ينسب إلى هذا العلم، فهذا أمر شخصي، وكذلك في العلوم العقلية فوجود بعض من يدّعي التفلسف لا ينبغي أن ينعكس على كلِّ العلم، فالأشخاص لا يمثّلون العلم؛ لأنَّ قوام العلم بموضوعاته ومسائله ومنهجه، والذي يطبّقه ينتمي إليه لا كلّ من ارتشف منه شيئاً، فالفلاسفة المذمومون هم المقلِّدة منهم لا الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه. والحكماء أنفسهم يتبرئون ممَّن يتناول الحكمة وليس لها بأهل وليس له هم إلَّا حفظ الاصطلاح، وسمّاهم الفارابي الفيلسوف: البَهْرَج، أي: الزائف كما في كلِّ صناعةٍ.

من أهم النقاط التي تؤثر على البعد المعرفي والثقافي والآيديولوجي والديني، هو الذي يؤمّن للعقل المعلومات لكماله النظري؛ وبالتالي العملي والسلوك، ومنطقة الأحكام الشرعية وجزئيات ما بعد القبر والبرزخ والآخرة وغيرها من الأمور التي تؤمّن التغطية المعرفية للسير والسلوك. وهذه كلها تابعة للدين الصحيح الذي قام الدليل عليه من قبل العقل الخاص، ومن ثَمَّ يمكن الاعتماد عليه كأداة معرفية تكاملية للعقل في حدود الأمور الشرعية والجزئية التي ليس من شأن العقل الاطلاع عليها، فإقصاء العقل يولّد عدم تشخيص الدين الصحيح الواقعي؛ وبالتالي يبدأ الانحراف وفق ما يرغب به من أقصاه وتبعاً لغاياته.

الثاني: انقطاع العلم والمعرفة

من الجدير بالذكر أنَّ الأثر المهم الناتج من إقصاء المنهج العقلي ظهور السفسطة والنسبية والتيارات المنحرفة الأخرى، وهذه بدورها تكون بذوراً لنشوء الفراغ العلمي واللامبالاة المعرفية، وهذه من أخطر الكوارث التي تصيب الإنسانية بما هي هي. فإنَّ انقطاع العلم والمعرفة النتاج الطبيعي الذي يظهر من تقهقر العقل؛ لأنَّ أداء التفكير، والتفكر إنَّما يحصل بنحوٍ تام عبر دراسة قواعد التفكير الصحيح والمناهج المعرفية، أمَّا دعوى فطرية هذه العلوم فهذا غير كافٍ في بنائها المعرفي، فإنَّ كثيراً من المعارف الفطرية تحتاج إلى ترتيب وتدريس وتنبيه، فقد تكون مصيدة للجهّال؛ لكثرة وقوع الخطأ والاشتباه والمغالطة فيها.

فطلب المعلومات المجهولة التصورية والتصديقية إنَّما تتم بمساعدة علم المنطق، الذي يبيّن لنا قواعد التفكير الصحيح والتي من خلالها يمكننا اكتساب المجاهيل التصورية والتصديقية، والمعرفة تبيّن لنا المناهج

المتبعة لمعرفة الواقع، فلو لم نتمكن من إحكام هذه العلوم لا نتوقع حصول المعلومات الصحيحة، وكذلك لو لم نرتبها بصورة صحيحة فالنتيجة تكون خاطئة قطعاً. وإذا لم تحكم فسوف تكون مدعاة لظهور بعض الطوائف التي فيها هدم الفكر والتفكير، منها:

السفسطة التي ترجع في أساسها لإنكار المؤثرات الخارجية، فحكموا بعقولهم وتركوا ما هو خارج عنها فأوصلهم الإفراط إلى إنكار الواقع بصورة غير مباشرة، فيحكمون على الأشياء كما هم يروها ، لا كما يراها الناس، لذا يجعل المحتمل صفة للحقائق ويجعل التسامح فضيلة من الفضائل؛ لأنَّ التسامح معناه إمكان الاختلاف، ومعنى إمكان الاختلاف أنَّ الحقائق ليست واحدة ثابتة، بل متغيّرة بحسب الأفراد، وهذه النزعة العقلية تقوم على الفردية، ما دامت تقوم على الاستقلال الفكري وبالتالي على الحرّية[1]، وهذا التيار يعتبر الأمّ والجامع لكثير من الاتجاهات المنحرفة والتي مؤداها إلى إنكار المعرفة، منها:

1. **النسبيين**: القائلون بنسبية العلم، فكلُّ ما يقال معتبر فلا وجود للحق المطلق، بل كلُّ قولٍ هو حق!!!

2. **إنكار الواقع**: لا توجد عندنا معرفة خارجية؛ لأنَّه لا يوجد خارج حتى تتعلق المعرفة به، فكيف أطلب ما لا يوجد، وغير ذلك من الخزعبلات.

3. **التشكيك في الحواس**: لقد تفنن مرتكبي الكبائر المعرفية في إنكار المعرفة، فلم يكفهم ما تقدم، بل تمادى بعضهم

---

(1) موسوعة الفلسفة، عبد الرحمان بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 1984، بيروت لبنان، ج1 ص588.

في التشكيك في الحواس وقدرتها على معرفة الواقع الخارجي، فهم يسلّمون بوجود واقع خارجي، ولكن يشككون في كيفية تحصيله نفسه، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى يشككون في كفاءة العقل لبلوغ اليقين حول طبيعة الأشياء[1].

فهذه الطوائف المنحرفة وغيرها، كان أفرادها ضحية مؤامرة إقصاء العقل.

الثالث: ظهور التيارات العقائديّة المنحرفة

الانحراف يصيب كلَّ تيارٍ لم يقم على ميزان العقل الخاص، وإذا أردنا أن نذكر التيارات المنحرفة لاحتجنا إلى مطوّلات، فهي ليست خاصة بوقت ومكان معيّن، بل في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فكثرٌ هي التيارات العقدية المنحرفة والباطلة التي مني بها أصحابها لكونهم اتخذوا من غير المعصوم قائداً.

ومن الأمثلة على هذه التيارات التي عانى منها الكلّ ولم يستفد منها إلّا الأعداء، بل جعلها تحمل العنوان العام للمذهب الحقّ وغرزها في قلب العالم:

- **المذهب السلفي الأخباري**، الذي يحارب العقل والمعرفة والاجتهاد، وينكر على من يستخدمها، بل ويرميه بالشرك والضلال والكفر.
- **المذهب الجبري**، الذي يسلب أيَّ دورٍ للإرادة الإنسانية في الإصلاح والتغيير أو في تعيين مصير الإنسان ومستقبله في الحياة، ويجعل كلَّ شيءٍ معلّق على القضاء والقدر الحتمي،

---

(1) انظر: الموسوعة الفلسفية، عبد المنعم الحنفي، دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ص433.

والاستسلام التام أمامه خيره وشرّه، فهو يعامل الإنسان كآلة.

- **المذهب الصوفي**، الذي يُسقط المسؤولية الاجتماعية بالكامل عن كاهل الإنسان، ودوره في الخلافة الإلهية ويستبدله بدور العاشق المُهيّم، بل يتنكر لأصل وجوده في الكون، فيرفض كلَّ أنواع الاستمتاعات المحللة والتي خلقها الله في خدمة البشر، ويذهب بالناس إلى الانزواء وترك الواقع والاعتناء بالجانب العشقي الإلهي.

- **المذهب المادي العلماني**، الذي ينفي أيَّ قيمةٍ للعقل الخاص ويقصي الدين عن جميع مجالات الحياة الفردية والاجتماعية، وينفي البعد الروحي والمعنوي للإنسان، ويحصره في الشؤون الحيوانية المحضة، ونجده قد أبدع في هذه المجالات فأوصل الإنسان إلى مرحلة متقدمة من حيثية القوى الشهوية والمتخيّلة، وتركه يعاني في المسائل الروحية والماورائية، فيستجدي من يلبّي حاجاته في هذه المنطقة، أو يحاول الوصول إليها عن طريق قتل النفس أو الانتحار أو الاتيان بأمور شاذة؛ ليشغل نفسه أو يصبّرها عن هذا الجانب المفقود.

الرابع: الإلحاد

واحدة من الأسباب المؤدية للإلحاد واللادينية هي سقوط الحاكم الفطري عن الصحة والكمال؛ فحينما يعيش الإنسان في حيرة من أمره وسط سقوط العقل؛ يقبل كلَّ ما يأتيه بلا حاجة حينئذٍ لاعتقاد وجود آله خالق للكون، بل هذا العالم وجد هكذا وليس هناك خالق نعبده ونتودد

إليه ونترجاه أن يرحمنا؛ لأنَّ العلية والمعلولية لا واقعية لها والصدفة هي التي أوجدت تلك، إلى غير ذلك من المهاترات.

خاتمة وتوصيات

خاتمة

كما أنَّ الأبدان تصاب بالأمراض والاختلالات الناتجة من دخول الأجسام الغريبة في البدن، فتثار ضدّه القوى الحامية التي خلقها الله مدافعة عنه وواحدة من أهم وسائل حصانة البدن؛ فتقوم ثائرة ويحصل صدام بينهما فتنتهي المعركة بغلبة الأقوى. إمَّا الجسم وعودة صحته إليه أو بانتصار المرض ويهلك الجسم.

فكذلك الأفكار، فالله تبارك وتعالى ركز فينا هذا النبي الفطري والذي لا يستطيع أحد رفضه، بل رفضه مستوجباً لقبوله، أنعم علينا بهذا الحصن المنيع ضدَّ الأفكار الدخيلة على الفطرة الإنسانية والتي تغيّر النظام السليم الذي جبل عليه الناس، والذي يكون فيه العقل في القيادة في أعلى الهرم، ففي بداية الهجوم على الفطرة السليمة تحصل ممانعة وعدم تقبّل؛ ولكن شيئاً فشيئاً يحصل نوع من التلائم والانسجام والخروج التدريجي عن الفطرة ، فيقع العقل أسيراً من قبل القوى الأخرى وتكون هي الحاكمة، وشيئاً فشيئاً يصل إلى مرحلة الانقياد والتبعية لبقية القوى، وهذه هي المسألة التي يشير إليها أمير المؤمنين عليه السلام، حينما قال: «**كم من عقلٍ أسيرٍ**

تحت هوى أمير»[1].

فإذا فقد الميزان للتفكير والمعرفة أصبح الإنسان في مهب عواصف الأفكار، فينقاد إلى ما تمليه عليه شهوته وغضبه، فتفسد فطرته السليمة بالمدخولات الغريبة، والتي أصبحت متجانسة وجعلت الفطرة غريبة.

فلكيلا نصل إلى تلك المرحلة التي تقودنا إلى الهلكة في الدنيا والآخرة؛ علينا أن نبني حصناً منيعاً ضدَّ الوباء الفكري ـ كما نعمل للبدن ضدَّ الفايروسات ـ، ولا نكتفي بذلك بل نسير عملاً وفق ما يملي علينا العقل الرصين والنبي الدفين؛ وبذلك نحصل على السعادة والفوز الدنيوي بالاستلذاذ بالمعرفة والعلوم التي لا لذة تشبهها، والفوز الأخروي بحصول الكمالات الموعودين بها من قبل الله تعالى.

(1) نهج البلاغة، الكلمات القصار لأمير المؤمنين، الكلمة رقم 211.

توصيات

بعد هذا البيان المختصر حول أصل المسألة، والتعرّض إلى الإشكالات والانتقادات وردّها باختصار، يبقى علينا التأكيد على طريقة حلٍّ، وليست ابتكار ولا اختراع، بل هي ما موجودة بالفطرة الإنسانية وتظهر بالصقل البسيط الواقعي، ولكن كما نعلم أكثر المشاكل العلمية إنَّما هي مشاكل نفسية، والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فأول خطوة الجهاد، وهناك طريق واحد له وهو في الله، فيهديه الله تعالى الصراط القويم، فيمكن إرجاع جميع الطرق إلى إرجاع العقل الخاص إلى مساحته الفطرية بما هي مفروضة له وبما حدّد هو من أهميته وسوف ينطلق بنا إلى بر الأمان وإلى الصراط الأقوم، وذلك يكون بعدّة طرق منها:

1. تذليل الصعوبات والمعوقات المانعة من دراسة العلوم العقلية.
2. على مستوى الدراسة:

أ. الاهتمام بالمواد التي تضع الأسس المتينة لصرح المعرفة الإنسانية كالمنطق والمعرفة، وجعلها كمناهج أساسية في الدراسة الأكاديمة والحوزوية على حدٍّ سواء.

ب. التأكيد على المقدمات عبر تدريس نظرية المعرفة كمادة أصلية في بداية الطريق[1].

---

(1) إنَّ هذه المسألة مغفول عنها في مجتمعاتنا، لذا يتساءل **بعض المفكّرين** عن السرِّ وراء ذلك: «أين هي مادة التفكير بين مواد القراءة والكتابة والحساب والتربية البدنية واللغة والفن؟ ألا تلاحظون أننا تعلمنا كلَّ هذه المواد من دون أن نتعلّم كيف نفكر في مختلف المواقف؟ ... لا نعلم كيف نفكّر عندما نمارس أعمالنا»، إدارة العقل البشري الجديد، بشير شريف البرغوثي، سنة الطبع: 2000م، دار زهران، عمّان، الأردن، ص 10.

ج. إثراء المناهج الدينية بالعلوم العقلية، وجعل دراسة العلوم العقلية في ضمن الدروس الأساسية فيها.

د. عمل دورات مكثّفة ومطوّلة في العلوم العقلية، وتأسيس قوة بشرية معتمدة على المنهج العقلي؛ لغرض السيطرة على الساحة التعليمية بالقريب العاجل.

ه. اعتماد اسلوب البناء الذاتي للفرد لا التلقين الببغائي، فإننا نرى أنَّ التطبيقات السياسية والاقتصادية للمفكّرين قد حضيت باهتمام واسع عند العرب، وأمَّا غيرها كالنظام العقلي نفسه الذي يتمتع به هؤلاء المفكّرون والذي على أساسه أقاموا التطبيقات السياسية والاقتصادية فلم يولَّ أيَّ اهتمامٍ[1].

و. إنشاء معاهد وكليات يشرف عليها أهل الاختصاص؛ لتربية كادر يعنى بالعلوم العقلية، وله قدرة وتسلط على تدريس المناهج العقلية.

ز. فتح مدارس خاصة وعامة، وجعل الدراسات العقلية واحدة من مناهجها الخاصة.

(1) يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار الاهتمام الذي عند المفكّرين بهذا الصدد، قال **جان جاك روسو**: «إننا لا نريد أن نخلق إنساناً متعلماً، ولكننا نريد أن نخلق إنساناً قابلاً لأن يتعلم»، وقال **سنيكا الروماني**: «لسنا أمام قربة نملؤها، وإنَّما أمام موقد علينا أن نلهبه».

انظر: البحث العلمي ومناهجه النظرية (رؤية إسلامية)، سعد الدين سيد صالح، المقدمة. نشر وتوزيع: مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الثانية 1414هـ 1993م، مكتبة الصحابة، جدة الشرقية.

ح. بناء الكوادر الثقافية والعلمية من كافة المستويات؛ للوصول إلى نشر عام لهذه العلوم.

3. على مستوى الإعلام:

أ. إبراز المنهج العقلي على كافة الأصعدة وبكافة الطرق المتوفرة، كإقامة الندوات العامة والخاصة بحضور مختصين في هذه المسألة، وكتابة بحوث وكتب تحقيقية وفتح فضائيات ومواقع معلوماتية وأقراص؛ لترتقي بالثقافة الخاصة والعامة للمجتمع.

ب. الاهتمام بترسيخ القواعد العقلية عبر بيان أهمية العلوم العقلية وما يترتب عليها من أمور وفوائد مهمة.

ج. نشر واعتماد الخطابة العقلائية الهادفة الواعية؛ لتركيز معالم الحكومة العقلية والعقلائية في أذهان الناس

د. نشر المفاسد المترتبة على عدم العقلانية والتعقل، والتخويف منها.

ه. اعتماد ونشر سياسة التشجيع لدراسة هذه العلوم، عن طريق بيان أهدافه ومدخليته في بناء النظرة المعرفية والثقافية الواقعية للإنسان، وتمييز هذه اللذائذ العقلية عن اللذائذ المادية والخيالية والتي هي سريعة الزوال، فاللذائذ الحسية قصيرة الأمد نسبة إلى اللذائذ العقلية[1]

(1) انظر: عجائب العقل البشري، راجي عنايت، دار الشروق، الطبعة الخامسة 1415هـ 1995م، بيروت لبنان، ص9.

و. نشر واعتماد ثقافة استماع الآخر، فبنشرها ترتقي العقول وتتكامل، وبالتالي تؤدي إلى امتثال الطريق الأفضل، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، ويقول ابن رشد: «ولا بدَّ مع ذلك أن يسمع الإنسان أقاويل المختلفين في كلِّ شيءٍ يفحص عنه، إن كان يحبّ أن يكون من أهل الحقِّ»[1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

وصلى الله على محمَّدٍ وآله الطيّبين الطاهرين.



(2) تهافت التهافت، ابن رشد.

فهرس المصادر

1. القرآن الكريم.
2. نهج البلاغة، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.
3. إدارة العقل البشري الجديد، بشير شريف البرغوثي، سنة الطبع: 2000م، دار زهران، عمّان، الأردن.
4. أزمة العقل المسلم، عبد الحميد أحمد أبو سليمان، الطبعة الأولى 1412هـ 1991م، نشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، توزيع: السعودية.
5. الإشارات والتنبيهات، الشيخ الرئيس.
6. أصول الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، الطبعة خامسة سنة 1363ش، المطبعة: حيدري، نشر: دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران.
7. أصول المعرفة والمنهج العقلي، أيمن المصري، الطبعة الأولى سنة 2010م، نشر: المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان.
8. إعلام الموقّعين عن ربِّ العالمين، ابن قيّم الجوزية، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، 1998م.
9. البحث العلمي ومناهجه النظرية (رؤية إسلامية)، سعد الدين سيد صالح، المقدمة. نشر وتوزيع: مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الثانية 1414هـ 1993م، مكتبة الصحابة، جدة الشرقية.
10. تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، محمد علي أبو ريان، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
11. تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور، ترجمة محمد عبد الهادي، الطبعة الثالثة، طبع ونشر دار

النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان.

12. تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، محمد لطفي جمعة، المكتبة العلمية.
13. تحف العقول، ابن شعبة الحرّاني.
14. تهافت التهافت، ابن رشد.
15. تهافت الفلاسفة، الغزالي، تحقيق وتقديم: سليمان دنيا، الطبعة الثامنة، نشر دار المعارف، مصر.
16. تهافت الفلاسفة، محمد بن محمد الغزالي، تقديم أحمد شمس الدين، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: 2008م، دار الكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
17. الرؤية الكونية من المادية إلى العرفان، شادي علي فقيه، الناشر: دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع، إخراج: مركز العلم للدراسات، الطبعة الأولى، سنة الطبع:2002.
18. الاحتجاج، الشيخ الطبرسي
19. السببية في العلم، السيد نفادي، الطبعة الأولى 2006م، نشر: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، توزيع دار الفارابي.
20. سفر الأمثال.
21. سفر الحكمة.
22. سفر المزامير.
23. سفر ملاخي.
24. سفر يشوع بن سيراخ.
25. سلسلة موسوعات مصطلحات أعلام الفكر العربي والإسلامي، جيرار جيهامي، خامساً: موسوعة مصطلحات ابن رشد الفيلسوف، الطبعة الأولى سنة 2000م، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان.
26. الشرح الكبير لكتاب النفس لأرسطو، ابن رشد، ترجمة: إبراهيم الغربي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، الطبعة الأولى.
27. صحاح العربية، الجوهري.
28. عجائب العقل البشري، راجي عنايت، دار الشروق، الطبعة الخامسة 1415هـ 1995م، بيروت لبنان.
29. العقد الفريد، ابن عبد ربّه.
30. العقل منبع الحكمة، عبد العزيز جادو، الطبعة الأولى 1978م، طباعة ونشر دار الفكر

العربي.
31. العقل وفهم القرآن، الحارث بن أسد المحاسبي، قدم له وحقق نصوصه حسين القوتلي، دار الكندي ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1402هـ 1982م.
32. علل الشرائع، الشيخ الصدوق.
33. الفصول المهمة في أصول الأئمّة، الحر العاملي.
34. فلسفة العلم، فيليب فرانك، ترجمة د علي علي نصيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 بيروت 1983.
35. كتاب الردِّ على المنطقيين، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيميَّة الحرّاني، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى سنة 2003م 1424هـ منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنَّة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
36. كتاب العين، الخليل الفراهيدي.
37. كشف الفضائح اليونانية ورشف النصائح الإيمانية، لشهاب الدين عمر بن محمد السهروردي، تحقيق وتعليق: عائشة يوسف المناعي، الطبعة الأولى 1420هـ 1999م، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر.
38. لسان العرب، ابن منظور.
39. المباحثات، أبو علي سينا الشيخ الرئيس، الناشر: منشورات بيدار، الطبعة الأولى سنة 1413هـ، قم، إيران.
40. مجربات ابن سينا الروحانية، الشيخ الرئيس ابن سينا، نشر مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، لبنان، سنة الطبع: 1425 هـ ق، الطبعة: الأولى.
41. محاضرات الأباء، الراغب الاصفهاني.
42. المشارع والمطارحات، السهروردي.
43. مشكلات الفلاسفة، ماهر عبد القادر محمد علي، سنة الطبع: 1405هـ 1985م، نشر وطباعة: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
44. مصادر المعرفة الدينية خبر الواحد نموذجاً، محمد جواد الموسوي الغروي، راجعه وأشرف عليه: علي أصغر الغروي، الطبعة الأولى 1425هـ 2004م، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
45. المعالم الجديدة للأصول، محمد باقر الصدر، الطبعة الثانية 1975م، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، الناشر: مكتبة النجاح طهران.

46. معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت لبنان، طبعة ثالثة مفهرسة، سنة الطبع 2006م.
47. مفهوم العقل، عبد الله العروي، الطبعة الثالثة سنة 2001، نشر: المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان.
48. مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون.
49. الملل والنحل، الشهرستاني.
50. مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي.
51. موسوعة (قصّة الحضارة)، للكاتبِ (ول ديورانت) ترجمة د. (عبد الحميد يونس).
52. موسوعة الفلسفة، عبد الرحمان بدوي، الطبعة الأولى سنة 1984م، نشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.
53. الموسوعة الفلسفية، عبد المنعم الحنفي، دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.
54. ميزان الحكمة، محمد الريشهري.
55. نزهة النظر في غريب النهج والأثر، عادل عبد الرحمان البدري، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: 1421هـ المطبعة: عترت، الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، إيران.

فهرست الموضوعات

المبحث الثالث: الاتجاهات المخالفة وتقييمها

المبحث الرابع: الإقصاء أسبابه ونتائجه

خاتمة وتوصيات